بسم الله الرحمن الرحيم

تفس سورة الأنبياء

وهي مكية بالاتفاق.

وحكي ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك .

قال أبو حيان : هذه السورة مكية بلا خلاف .

اسمها :

سورة الأنبياء .

قال ابن عاشور : ولا يعرف لها اسم غير هذا ، ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبياً ومريم ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام.

أغراضها :

قال البقاعي : مقصودها الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت ، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير ، لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها ، وهن من لا يبدل القول لديه ، والدال على ذلك أوضح دلالة مجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يستقل قصة منها استقلالاً ظاهراً بجميع ذلك كما سنبين ، ولا يخلو قصو من قصصهم من دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل - والله الموفق.

وقال ابن عاشور : والأغراض التي ذكرت في هذه السور هي :

الإنذار بالبعث ، وتحقيق وقوعه وإنه لتحقق وقوعه كان قريباً.

وإقامة الحجة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من السماء.

والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله.

والتذكير بأن هذا الرسول ﷺ ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله.

وذكر كثير من أخبار الرسل عليهم السلام.

والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام ﷺ وأنه رحمة للعالمين.

والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع ولا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة.

وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة ، وذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج.

وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.

ومن الإيماء إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزي كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل.

ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذا لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.

وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى.

وما يكرهه على فعل ما لا يريد.

وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء.

وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ، ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء.

وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد ﷺ وأحوال قومه.

(**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ (١)**) .

[طه : ١] .

==========

(**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ**) أي : دنا وقرب للناس .

والمراد بالناس العموم .

وقيل : المشركون مطلقاً .

لأنهم هم الموصوفون بأنهم في غفلة وإعراض عن يوم الحساب وبأنهم يستمعون الذكر وهم معرضون لاهية قلوبهم، وبقولهم عن الرسول والقرآن (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) .

والمعنى: قرب الزمن الذي يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا، والحال أن الكافرين منهم في غفلة تامة عن هذا الحساب، وفي إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

وقال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ...) بلفظ العموم، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيرا. (التفسير الوسيط)

قال ابن كثير : هذا تنبيه من الله- عز وجل- على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

قال ابن عطية : وقوله تعالى (اقترب للناس حسابهم) عام في جميع الناس، المعنى وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش ويدل على ذلك ما بعد من الآيات، وقوله (وهم في غفلة معرضون) يريد الكفار.

(**حِسَابُهُمْ**) أي : زمن حسابهم ، وهو القيامة .

قال الرازي : والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم.

وقال القرطبي : "اقترب" أي قرب الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم.

(**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**) في الدنيا .

قال ابن عاشور : والغفلة الذهول عن الشيء وعن طرق علمه .

(**مَّعْرِضُونَ**) عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه .

قال ابن عاشور : والإعراض صرف العقل عن الاشتغال بالشيء.

فائدة : ١

ففي الآية اقتراب الحساب والقيامة .

كما قال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ).

وقال تعالى (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً).

وقال تعالى (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

فائدة : ٢

كيف وصف بأنه قريب مع أنه قد مضى على نزول هذه الآية وأمثالها أكثر من أربعة عشر قرناً ؟

والجواب :

أ- لأن كل ما هو آتٍ قريب ، وإنما البعيد ما انقرض ومضى .   (البيضاوي) .

ب- أو باعتبار ما بقي من الدنيا فإنه أقصر وأقل مما مضى .   (أبو حيان) .

لأن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها قليل .

ولهذا كانت رسالة محمد خاتمة الرسالات ونُبُوَّتُهُ خاتمة النبوات، ومن أجل ذلك قال ؟؟ بعثت أنا والساعة كهاتين" وأشار إلى أصبعيه الوسطى والإبهام التي تليها، أي أن بعثته قريبة من الساعة قرب نهاية الإبهام من نهاية الإصبع الوسطى .

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

ب-على أن الموت هو القيامة الصغرى، وهو منهم قريب، وحينئذ يعرفون حالهم ومآلهم.

ج-أنه قريب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَألْفِ سَنَةٍ مّمَّا تَعُدُّونَ) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً) .

قال ابن الجوزي : وفي معنى قُرْبِهِ قولان.

أحدهما : أنه آتٍ ، وكلُّ آتٍ قريبٌ.

والثاني : لأن الزمان لِكثرة ما مضى وقِلّة ما بقي قريبٌ.

وقال أبو حيان : جعل ذلك اقتراباً لأن كل ما هو آت وإن طال وقت انتظاره قريب ، وإنما البعيد هو الذي انقرض أو هو مقترب عند الله كقوله (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) أو باعتبار ما بقي من الدنيا فإنه أقصر وأقل مما مضى.

وفي الحديث : " بعثت أنا والساعة كهاتين " قال الشاعر :

وقال القاسمي : وإنما كان مقترباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً) .

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) .

وقال ابن عاشور : والمراد من الحساب إما يوم الحساب ، ومعنى اقترابه أنه قريب عند الله لأنه محقق الوقوع ، أو قريب بالنسبة إلى ما مضى من مدة بقاء الدنيا كقول النبي ﷺ " بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين " أو اقترب الحساب كناية عن اقتراب موتهم لأنهم إذا ماتوا رأوْا جَزاء أعمالهم ، وذلك من الحساب ... وفي هذا تعريض بالتهديد بقرب هلاكهم وذلك بفنائهم يوم بدر.

فائدة : ٣

قال الرازي : إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب إلى تلافي الذنوب والتحرر عنها خوفاً من ذلك ، والله أعلم ... إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح ، كما أن كتمان وقت الموت أصلح.

فائدة : ٤

قال الرازي : الفائدة في تسمية يوم القيامة بيوم الحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم.

وقال القاسمي : وإن حق الناس أن ينتبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن في تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، ففي العنوان ما يرهب منه .

فائدة : ٥

على المسلم أن يجتهد في الطاعة والعبادة والاستعداد بالأعمال الصالحات ، لأن وقت الحساب والقيامة قريب .

لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا حساباً دقيقاً .

قال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور).

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رضي الله عنه وأرضاه، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور .

قال الإمام النووي رحمه الله في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه).

قال القرطبي : من عَلِم اقتراب الساعة قصر أمله ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكأنّ ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آتٍ قريب ، والموت لا محالة آتٍ ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى.

قال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) . رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يشهدون الجنازة فيُرى ذلك أياماً كأن فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت.

ولذلك لما علم أهل الفضل بأن الموت قريب وأنه آتٍ، عملوا لذلك واستعدوا له قبل وقوعه.

إن لله عباداً فطنا .... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا إليها فلما علموا .... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا .... صالح الأعمال فيها سفنا

فرحم الله امرءاً أخذ من نفسه لنفسه، وأعد العدة لأوان رمسه، وتأهب للرحيل قبل غروب شمسه فما الحياة إلا كان ثم بان .

عن البراء بن عازب. قال (كنا مع النبي ﷺ إذ أبصر بجماعة فقال: علام اجتمع هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه؟ قال: ففزع رسول الله ﷺ فذهب مسرعاً حتى انتهى إلى القبر، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني لمثل هذا فأعدوا؟).

قال الشاعر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وشاهدتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على ألا تكون كمثلهِ ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا.

قال ابن رجب: وهذا الحديث (كن في الدنيا ...) أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً، فيطمئنّ فيها، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل.

كان النَّبيُّ ﷺ يقول (مالي ولِلدُّنيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها).

ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنَّه قال لهم: اعبُروها ولا تَعمُرُوها، ورُوي عنه أنَّه قال: من ذا الذي يبني على موجِ البحر داراً، تلكُمُ الدُّنيا، فلا تتَّخذوها قراراً.

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلبوا بصرهم في بيته، فقالوا له: إنَّا نرى بيتَك بيتَ رجلٍ مرتحلٍ، فقال: أمرتحلٌ؟ لا، ولكن أُطْرَدُ طرداً.

وكان عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ يقول: إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

قال بعضُ الحكماء: عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا موليةٌ عنه، والآخرة مقبلةٌ إليه، يشتغلُ بالمدبرة، ويُعرِض عن المقبلة.

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته: إنَّ الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكُم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظَّعَن، فكم من عامرٍ موثَّق عن قليلٍ يَخْرَبُ، وكم من مقيمٍ مُغتَبطٍ عما قليل يَظعَنُ، فأحسنوا – رحمكم الله – منها الرِّحلة بأحسن ما بحضرتكم مِن النقلة، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التقوى.

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة، ولا وطناً، فينبغي للمؤمن أنْ يكون حالُه فيها على أحد حالين: إما أنْ يكونَ كأنَّه غريب مقيمٌ في بلد غُربةٍ، همُّه التزوُّد للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنَّه مسافرٌ غير مقيم البتَّة، بل هو ليله ونهارَه، يسيرُ إلى بلدِ الإقامة، فلهذا وصّى النَّبيُّ ﷺ ابنَ عمر أنْ يكونَ في الدُّنيا على أحد هذين الحالين.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤمّلون ما لا تأخذون، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

قال تعالى (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) .

وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى).

– قال الرازي: وإنما قلنا: إن الآخرة خير لوجوه:

الأول: أن نعم الدنيا قليلة، ونعم الآخرة كثيرة.

والثاني: أن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة.

والثالث: أن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره، ونعم الآخرة صافية عن المكدرات.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: أن رَسُول الله ﷺ قَال (بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقراً مُنسياً، أَوْ غِنيً مُطغِياً، أَوْ مَرَضاً مُفسِداً، أَوْ هَرَماً مُفْنداً، أَوْ مَوتاً مُجْهزاً، أَوْ الدَّجّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَر). رواه الترمذي

وعنه. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ). رواه مسلم .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَاءِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

وَقَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ).

وَقَالَ تَعَالَى (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

الموت يأتي بغتة ... والقبر صندوق العمل.

وليحذر المسلم من طول الأمل.

قال رسول الله (لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حبّ الدّنيا وطول الأمل).
يتولد من طول الأمل:
الكسلُ عن الطاعة، والتسويفُ بالتوبة، والرغبةُ في الدنيا، والنسيانُ للآخرة، والقسوة في القلب؛ لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكر الموت، والقبر، والثواب، والعقاب، وأهوال يوم القيامة؛ كما قال تعالى (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ).
قال ابراهيم بن أدهم: من أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله.
قال ابن القيم: إضاعة الوقت من طول الأمل.
وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل.
وقال الفضيل: إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قصر الأمل.
وقال بعض الحكماء: الجاهل يعتمد على الأمل، والعاقل يعتمد على العمل.
وقال ابن القيم: مفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل.
وقال الحسن: إياك والتسويف؛ فإنك بيومك ولست بغدك.
قال الغزالي: إذا طولت أملك قلت طاعتك.
وقال بعضهم: الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه.
وقال يحيى بن معاذ: الأمل قاطع عن كل خير، والطمع مانع من كل حق.
وقال ابن مسعود: لا يطولنّ عليكم الأمد ولا يلهينّكم الأمل فإنّ كلّ ما هو آت قريب.
وقال معروف الكرخي: نعوذُ بالله من طولِ الأمل، فإنَّه يمنع خيرَ العمل.
قال ابن بطال: الخير ينبغي أن يبادَر به؛ فإن الآفات تعرض، والموانع تمنع، والموت لا يؤمَن.
وقال القرطبي: (ويُلهِهِمُ الأَمل) أي: يشغلهم عن الطاعة.
قال علي: إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى؛ فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.
فعلى المسلم أن يكثر من ذكر الموت.
لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اَللَّذَّاتِ: اَلْمَوْتِ) رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِي.
قال ابن رجب: في الإكثار من ذكر الموت فوائد:
منها: أنه يحث على الاستعداد له قبل نزوله، ويقصّر الأمل، ويُرضي بالقليل من الرزق، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، ويهوّن مصائب الدنيا، ويمنع من الأشر والبطر والتوسع في لذات الدنيا.
قال ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة) وفي رواية (وترق القلب وتدمع العين).
قال الحسن: من أكثر من ذكر الموت هانت عليه مصائب الدنيا.
وقال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العباد .
فأعظم نعمة قصر الأمل .

ومعناه العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للثبات على الطاعات، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحث على قضاء جهاز سفره وتدارك الفائت، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة. فكلما قصر الأمل جد العمل، لأن العبد يقدِّرُ أنه يموت اليوم فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسي شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أن يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل، وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه، فقد أوصى النبي ﷺ ابن عمر فقال له: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

قال وهب بن الورد: إن لله ملكاً ينادي في السماء كل يوم وليلة أبناء الخمسين: زرع دنا حصاده، أبناء الستين: هلموا إلى الحساب، أبناء السبعين: ماذا قدمتم و ماذا أخرتم، أبناء الثمانين: لا عذر لكم.

وعن وهب قال: ينادي مناد: أبناء الستين: عدوا أنفسكم في الموتى.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (أعذر الله إلى من بلغه ستين من عمره).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مَالِي إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلاَثٌ مَا أَكَلَ فَأَفْنَى أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ) رواه مسلم.

عن عبدِ الله بن الشِّخِّيرِ –بكسر الشينِ والخاء المعجمتين– أنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) قَالَ (يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مالي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!). رواه مسلم

فهذا هو الذي يضاف إليه حياً وميتاً بخلاف ما يخلفه من المال.

قال ابن بطال: فيه التحريض على ما يمكن تقديمه من المال في وجوه البرّ والقرب لينتفع به في الآخرة، فإن كل ما يخلفه يصير ملكاً للوارث.

وعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النبيُّ ﷺ (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟) قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها. قَالَ (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا) رواه الترمذي.

ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلاَّ كَتِفَها. فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إِلاَّ كَتِفَهَا.

فائدة : ٦

إثبات الحساب يوم القيامة .

والحساب: هو اطلاع الله عباده على أعمالهم، وتقريرهم عليها.

وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ).

وقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً).

وأما من السنة:

فقد كان النبي ﷺ يقول في بعض صلاته: (... اللهم حاسبني حساباً يسيراً) فقالت عائشة: (ما الحساب اليسير؟ قال: (أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه). رواه أحمد، وقال الألباني: " إسناده جيد ".

وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

– يستثنى من الذين لا يحاسبون من يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

كما جاء في الصحيحين. أن النبي ﷺ قال (عرضت عليّ الأمم ... الحديث وفيه: ورأيت أمتي ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون).

- يشمل الحساب حتى الجن.

لأنهم مكلفون مأمورون كالإنس.

ولذلك الجني الكافر يدخل النار بالاتفاق.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ...).

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ).

ويدخل مؤمنهم الجنة كما هو مذهب أكثر العلماء:

لعموم قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

ولقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ).

ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ).

- وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله: الصلاة.

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله). رواه الترمذي

- وأول ما يقضى فيه بين الناس في الدماء.

لقوله ﷺ (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء).

وصفة حساب المؤمن:

يخلو به ربه ويقرره بذنوبه، ثم يسترها ويغفرها.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (يُدنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب! أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم). متفق عليه

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ومع ذلك، فإنه سبحانه يضع عليه ستره، بحيث لا يراه أحد، ولا يسمعه أحد، وهذا من فضل الله على المؤمن، فإن الإنسان إذا قررك بجنايتك أمام الناس وإن سمح عنك، ففيه شيء من الفضيحة، لكن إذا كان ذلك وحدك، فإن ذلك ستر منه عليك.

وأما الكفار فيحاسبون حساب تقريع وتوبيخ، وليس محاسبة حسنات وسيئات.

كما في حديث ابن عمر السابق وفيه (... وأما الكفار والمنافقون فيُنادَى بهم على رؤوس الخلائق، هؤلاء الذين كذبوا على الله).

وهو عسير عليهم.

كما قال تعالى (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً).

وقال تعالى (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ).

وإنما كان الحساب شديداً، لأنه لا يدع شاردة ولا واردة إلا أتى بها (أحصاه الله ونسوه).

يُسأل العبد عن كل شيء، ومن أهم الأمور التي يُسأل عنها:

أولاً: الكفر والشرك.

كما قال تعالى (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ).

ثانياً: ما عمله في الدنيا.

كما قال تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وعن أبي برزة. قال: قال رسول الله ﷺ (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه) رواه الترمذي.

ثالثاً: النعيم الذي يتمتع به.

قال تعالى (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

رابعاً: العهود والمواثيق.

كما قال تعالى (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً).

خامساً: السمع والبصر والفؤاد.

كما قال تعالى (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً).

قواعد عامة في الحساب:

أولاً: العدل التام في الحساب.

قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة).

وقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

فتيلاً: هو الخيط الذي يكون في شق النواة. ... نقيراً: النقير النقرة الصغيرة التي تكون في ظهر النواة.

ثانياً: لا يؤاخذ أحد بجريرة أحد.

قال تعالى (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

وقال تعالى (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

أي لتؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها.

ثالثاً: الله سريع الحساب.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) فالله سريع الحساب من وجهين:

الأول: أن اليوم الآخر – الذي يقع فيه الحساب – قريب أن مجيئه قريب وسريع، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب.

كما قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ).

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

والثاني: أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة.

كما قال تعالى (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ).

ووصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه.

قال الرازي: والفائدة في كونه سريع الحساب كونه عالماً بجميع المعلومات، فيعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب.

البهائم لا حساب عليها حساب حسنات وسيئات وإنما يجري بينها القصاص.
عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (لتؤدن الحقوقَ إلى أهلها حتى يقادَ للشاةِ الجَلْحَاء من الشاة القرناء) متفق عليه. ...
الجلحاء: بفتح الجيم وسكون اللام وهي التي لا قرن لها.
الحكمة: ليظهر عدل الله حتى في البهائم.

فائدة : ٧

ذم الغفلة وأنها من صفات الكفار .
والغفلة لغةً: عدم الانتباه وإحضار الفكر.
وشرعاً: الانخراط في الحياة الدنيا، ونسيان أمور الآخرة جزئياً أو كلياً.
فالغفلة : انغماس في الدنيا والشهوات ونسيان الآخرة فيجتهد الغافل في تعمير الدنيا الفانية وتخريب الآخرة الباقية .
يقول الله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) .
قال القاسمي: قوله تعالى (وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه، بقدر الطاقة البشرية.
والغفلة لها مفاسد:
الحذر من الغفلة؛ لأن أكثر الناس وقعوا في الغفلة.
قال الله تعالى (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون).
أنها سبب الهلاك:
قال تعالى (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِين).
جعل أهلها حطب جهنم وأضل من الأنعام، وعد الانتفاع بالآيات.
قال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).
عدم طاعة الغافل.
قال تعالى (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً).
إدانة من يهتم بالدنيا دون الآخرة وهم الغافلون.
قال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ).
التحذير من أن يكون من الغافلين.
قال تعالى (وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ).
الغفلة صفة من صفات أهل النار.
قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون).
أهل الغفلة لهم الحسرة يوم الحسرة.

قال الله تعالى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ).

وقد تكون الغفلة عن الله عقوبة من الله للعبد على معصيته.

قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُون).

روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي اللهُ عنهما أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ (لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِين).

فائدة : ٨

أسباب الغفلة حتى يجتنبها المؤمن:

أولاً: الانقطاع الكثير عن زيارة القبور، وتذكر الموت والدار الآخرة.

قال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِر).

قال ابن كثير رحمه الله: "أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها، قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور).

ثانياً: طول الأمل.

قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

قال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

ثالثاً: حب الدنيا والتعلق بها.

قال تعالى: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ).

وقال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

رابعاً: الانقطاع عن مجالس الذكر وعدم المحافظة على الأذكار الشرعية في الصباح والمساء وعند دخول المسجد والخروج منه وعند الدخول إلى المنزل والخروج منه وغير ذلك من المواضع.

قال تعالى (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِين).

قال ابن القيم رحمه الله : على قدر غفلة العبد عن الذكر يكون بعده عن الله.

وقال أيضاً : إن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليختر العبد أعجبها إليه وأولاها به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

فائدة : ٩

ذم الإعراض ، وله نتائج وخيمة .

أولاً : أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً .

قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه) .

ثانياً : جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه .

قال تعالى (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) .

ثالثاً : انتقام الله .

كما قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) .

رابعاً : كون المعرض كالحمار .

كما قال تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ) .

خامساً : الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

قال تعالى (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) .

سادساً : المعيشة الضنك .

قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) .

سابعاً : سلكه العذاب الصعد .

كما قال تعالى (وَمَن عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) .

(مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)) .

[طه : ٢-٤] .

==========

(**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**) أي : ما يأتيهم شيءٌ من الوحي والقرآن من عند الله متجدّد في النزول فيه عظةٌ لهم وتذكير .

محدث : أي حديث وجديد إنزاله .

(**إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**) أي : إلاّ استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن: كلما جُدّد لهم الذكرُ استمروا على الجهل .

أي : غير منصتين إليه ، ولا متدبرين له ، ولا معتبرين بوعده ووعيده .

(**لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**) أي : ساهيةً قلوبهم عن كلام الله، غافلة عن تدبر معناه .

(**وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ**) أي : تناجى المشركون فيما بينهم سراً .

(**هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**) أي : قالوا فيما بينهم خفيةً هل محمد الذي يدّعى الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

ذَكَرَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْكُفَّارَ أَخْفَوُا النَّجْوَى فِيمَا بَيْنَهُمْ ، قَائِلِينَ : إِنَّ النَّبِي مَا هُوَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، فَكَيْفَ يَكُونُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ ؟ وَالنَّجْوَى : الْإِسْرَارُ بِالْكَلَامِ وَإِخْفَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ . وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ دَعْوَاهُمْ أَنَّ بَشَرًا مِثْلَهُمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا ، وَتَكْذِيبُ اللَّهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ جَاءَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

قوله تَعَالَى عَنْهُمْ (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا).

وَقَوْلُهُ (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا).

وجميع الأمم كذبوا وعجبوا من إرسال بشر:
قال تعالى عن نوح (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).
وقالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)، وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ).
وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ).
وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ).
(**أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ**) أي : أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر ؟
قال أبو حيان : (أفتأتون السحر) استفهام معناه التوبيخ و(السحر) عنوا به ما ظهر على يديه من المعجزات التي أعظمها القرآن والذكر المتلو عليهم .
قال ابن عاشور: يجوزُ أن يُرادَ بالإتيانِ هنا حُضورُ النبيِّ ﷺ لِسَماعِ دَعوتِه، فجعلوه إتيانًا؛ لأنَّ غالِبَ حُضورِ المجالِسِ أن يكونَ بإتيانٍ إليها، وجعلوا كلامَه سِحرًا، فنَهَوا مَن ناجَوهم عن الاستِماعِ إليه. وهذا كقَولِه تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) .
قال الشنقيطي : والْمَعْنَى أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ سِحْرٌ، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ الزَّعْمِ الْبَاطِلِ أَنْكَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِتْيَانَ السِّحْرِ وَهُمْ يُبْصِرُونَ. يَعْنُونَ بِذَلِكَ تَصْدِيقَ النَّبِيِّ ﷺ أَيْ: لَا يُمْكِنُ أَنْ نُصَدِّقَكَ وَنَتَّبِعَكَ، وَنَحْنُ نُبْصِرُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ سِحْرٌ.
وَقَدْ بَيَّنَ -جَلَّ وَعَلَا- فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ سِحْرٌ، كَقَوْلِهِ عَنْ بَعْضِهِمْ (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) .
وَقَوْلِهِ تَعَالَى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) .
قال الألوسي: أرادوا أن ما أتى به محمد ﷺ من قبيل السحر، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن .
طعنوا في نبوته بأمرين : أحدهما : أنه بشر مثلهم.
والثاني : أن الذي أتى به سحر .
(**قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ**) أي: قال محمَّدٌ ﷺ للكفَّارِ الذين يكذِّبونَه: ربِّي يعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ سِرًّا كان أو جهرًا، لا يخفَى عليه شَيءٌ ممَّا يُقالُ فيهما، وهو الذي أنزل هذا القُرآنَ المشتَمِلَ على خبرِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه إلَّا الذي يعلَمُ السرَّ في السَّمواتِ والأرضِ .
كما قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) .
وقرأ (**قل ربي**) على الأمرِ، أي: أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّه ﷺ أن يُجيبَ الكُفَّارَ بهذا القَولِ
وقيل : إن هذه القراءة أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه ﷺ ، وأمره أن يقول لهم هذا
قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما من الفائدة أن النبي ﷺ أُمِر وأنه قال كما أُمِرَ.
(**وَهُوَ السَّمِيعُ**) لأقوالكم .

(**الْعَلِيمُ**) بأحوالكم .

وفي هذا تهديد لهم ووعيد .

الفوائد :

١. أن القرآن ذكر للناس .

٢. أن نزول القرآن كان شيئاً فشيئاً حسب الوقائع والحوادث .

٣. أن القرآن منزل غير مخلوق .

٤. عناد وطغيان الكفار حيث يلعبون عند استماع القرآن .

٥. أن المؤمن عند استماع القرآن ينصت ويستمع ويخشع .

٦. خطر لهو القلب بالدنيا وشهواتها وملاذها .

٧. أن أعظم الظلم الشرك بالله تعالى .

٨. إنكار بعثة النبي ﷺ بحجة أنه بشر ، وقد تقدم الرد عليهم .

٩. تسلية لكل داعية إلى الله .

١٠. تهديد هؤلاء الكفار بأن الله يعلم ما يقولون وسيعاقبهم عليه .

١١. عموم سمع الله تعالى .

١٢. عموم علم الله تعالى .

١٣. إثبات اسمين من أسماء الله وهم : السميع والعليم .

تنبيه :

في قوله تعالى (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ) استدلَّ المعتزلةُ بوَصْفِ الذِّكْرِ بكونِه مُحْدَثًا على أَنَّ القرآنَ مُحْدَثٌ أي: مخلوقٌ؛ لأَنَّ الذِّكْرَ هنا هو القرآنُ.

والجواب: أنَّ المرادَ محدَثٌ تنزيلُه، والحدوثُ في لغةِ العربِ العامَّةِ ليس هو الحدوثَ في اصطلاحِ أهلِ الكلامِ؛ فإنَّ العربَ يُسمُّون ما تجدَّد حادِثًا .

بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ٦))

[الأنبياء : ٥ –٦] .

==========

(**بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ** ...) أي: بل قال الكافِرونَ: القرآنُ أشياءُ مُختَلِطةٌ رآها محمَّدٌ في منامِه ولا حقيقةَ لها، بل هو كذِبٌ افتراه محمَّدٌ مِن قِبَلِ نفْسِه، بل محمَّدٌ شاعِرٌ جاءكم بشِعرٍ، وزعم أنَّه مِن عندِ ربِّه .

والظَّاهِرُ أَنَّ الْإِضْرَابَ فِي قَوْلِهِ هُنَا (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ... إلخ) إِضْرَابُ انْتِقَالِيٌّ لَا إِبْطَالِيٌّ ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ كُلَّهُ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي حَكَاهَا اللَّهُ عَنْهُمْ صَدَرَتْ مِنْ طَائِفَةٍ مُتَّفِقَةٍ لَا يَثْبُتُونَ عَلَى قَوْلٍ، بَلْ تَارَةً يَقُولُونَ هُوَ سَاحِرٌ، وَتَارَةً شَاعِرٌ، وَهَكَذَا؛ لِأَنَّ الْمُبْطِلَ لَا يَثْبُتُ عَلَى قَوْلٍ وَاحِدٍ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ قَالَتْهُ طَائِفَةٌ .

وقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةَ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ :

كَرَدِّهِ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ شَاعِرٌ أَوْ كَاهِنٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ فِي رَدِّ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ افْتَرَاهُ (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وقوله فِي رَدِّ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ : (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) .

(**فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**) يعنون كناقة صَالِحٍ وَآيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى .

وَقَدْ قَالَ اللهُ (وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) .

قال أبو حيان : في قولِهم (كَمَا أُرسِلَ الْأَوَّلُونَ) دَلالةٌ على مَعرفتِهم بإتيانِ الرُّسلِ .

قال القرطبي : أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح.

وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغي أن يأتي بآية نقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعدما رأوا آية واحدة.

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا لَوْ جَاءَتْهُمْ مَا آمَنُوا ، وَأَنَّهَا لَوْ جَاءَتْهُمْ وَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مُسْتَأْصِلٍ ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ صَالِحٍ لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) .

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

وقال الشوكاني : وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك ، كما قال (وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ) قال الزجاج : اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال .

(**مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ**) أَيْ : مَا آتَيْنَا قرية من القرى التي بُعِثَ فِيهِمْ الرُّسُلُ آيَةً عَلَى يَدَيْ نَبِيِّهَا فَآمَنُوا بِهَا بَلْ كَذَّبُوا، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلِكَ أَفَهَؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ لَوْ رَأَوْهَا دُونَ أُولَئِكَ؟ كَلَّا، بل (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) هَذَا كُلُّهُ وَقَدْ شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ أَظْهَرُ وَأَجْلَى وَأَبْهَرُ وَأَقْطَعُ وَأَقْهَرُ مِمَّا شُوهِدَ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. (ابن كثير)

وقد بَيّنَ تعالى أَنَّهُمْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ هِيَ أَعْظَمُ الْآيَاتِ ، فَيَسْتَحِقُّ مَنْ لَمْ يَكْتَفِ بِهَا التَّقْرِيعَ وَالتَّوْبِيخَ ، وَذلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) .

وقال تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى) . (أضواء)

قال الرازي : والمعنى أنهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثاً.

قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهم لم يجابوا لأن حكم الله تعالى أن من كذب بعد الإجابة إلى ما اقترحه من الآيات فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في أمة محمد ﷺ خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم.

وقال أبو حيان : (ما آمنت قبلهم) مقدراً كلام يدل عليه المعنى، تقديره والآية التي طلبوا عادتنا أن القوم إن كفروا بها عاجلناهم. وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة أفهذه كانت تؤمن .

وقال ابن الجوزي : والمعنى أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات، لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم، فكيف يؤمن هؤلاء؟! وهذه إشارة إلى أن الآية لا تكون سبباً للإيمان، إلا أن يشاء الله.

وقال ابن عاشور : والمعنى أن الأمم التي أرسل إليها الأولون ما أغنت فيهم الآيات التي جاءتهم كما وددتُم أن تكون لكم مثلها فما آمنوا ، ولذلك حق عليهم الإهلاك فشأنكم أيها المشركون كشأنهم.

وهذا كقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وإنما أمسك الله الآيات الخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم ، ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها.

الفوائد :

١. اضطراب الكفار وحيرتهم فيما يصفون به النبي ﷺ والقرآن الكريم .

٢. تسلية لكل داعية إلى الله تعالى .

٣. تعنت الكفار حيث طلبوا آية مما يقترحونه هم ، كناقة صالح .

٤. لقد جاءهم النبي ﷺ بالآيات الباهرات الدالة على نبوته ولكنهم يتعنتون ويستكبرون .

٥. أن أعظم الآيات والمعجزات الباهرات القرآن الكريم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧)) .

[الأنبياء : ٧] .

==========

(**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ** ...) أي : وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية، إلا بشرا نوحي إليهم كما أوحينا إليك، قال المفسرون: أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا مَلَكا!! فنزلت.

قال ابن عطية: هذه الآية رد على كفار قريش الذين استبعدوا أن يكون البشر رسولاً من الله تعالى، فأعلمهم الله تعالى مخاطباً لمحمد ﷺ أنه لم يرسل إلى الأمم (إلا رجالاً) ولم يرسل ملكاً ولا غير ذلك.

وقال القرطبي : هذا رد عليهم في قولهم (هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) وتأنيس لنبيه ﷺ ؛ أي لم يرسل قبلك إلا رجالاً (فسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي ﷺ قاله سفيان.

وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب، وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر محمد ﷺ. (القرطبي)

(نُوحِي إِلَيْهِمْ) نُوحي إليهم الشَّرائعَ والأحكامَ.

كما قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى).

وقال سُبحانه (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ).

-الوحي من خصائص الأنبياء، وللأنبياء خصائص:

أولاً: تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (مَا كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعاً، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا. قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثانياً: يدفنون حيث يموتون.

قال ﷺ (لم يدفن نبي إلا حيث قبض). رواه أحمد

ثالثاً: يخيرون عند موتهم.

قال ﷺ (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة) متفق عليه .

رابعاً: أحياء في قبورهم.

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (رأيت موسى يصلي في قبره).

خامساً: لا تأكل الأرض أجسادهم.

قال ﷺ (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أبو داود .

سادساً: الوحي.

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ).

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أي: أهل الكتاب.

قال الزجاج: فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى، فإنهم يعرفون أن الأنبياء كلهم بشر.

قال ابن كثير: قَالَ الضَّحَّاكُ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا، أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ وَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا، فأنزل (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) وَقَالَ (وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) يَعْنِي أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أَمْ مَلَائِكَةً؟ فَإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ ﷺ .

رسولاً.

وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الكريمة أخبرت بأن الرُّسُلَ الْمَاضِينَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا بَشَرًا كَمَا هُوَ بَشَرٌ.

كمَا قَالَ تَعَالَى (قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا).

وَقَالَ تَعَالَى (وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ).

وَقَالَ تَعَالَى (وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِين).

وَقَالَ (قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ).

وَقَالَ تَعَالَى (قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ).

ثُمَّ أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَكَّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ أَصْحَابِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا هَلْ كَانَ أَنْبِيَاؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً.

قال الرازي : فالمعنى أنه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة ، وإنما أحالهم على هؤلاء لأنهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله ﷺ .

قال ابن عطية: و (أهل الذكر) هنا اليهود والنصارى، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن، وقال الأعمش وسفيان بن عيينة: المراد من أسلم منهم، وقال ابن جبير وابن زيد: (أهل الذكر) أهل القرآن.

وهذان القولان فيهما ضعف، لأنه لا حجة على الكفار في إخبار المؤمنين بما ذكر، لأنهم يكذبون هذه الصنائف، وقال الزجاج (أهل الذكر) هنا أحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا، وهم في هذه النازلة خاصة إنما يخبرون بأن الرسل من البشر، وإخبارهم حجة على هؤلاء.

قال الخازن: وإنما أمرهم الله بسؤال أهل الكتاب لأن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم، وقد أرسل الله إليهم رسلاً منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل، وكانوا بشراً مثلهم فإذا سألوهم فلا بد، وأن يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم.

قال الثعالبي: و (أَهْلَ الذكر) هنا: أحبارِ اليهودِ والنصارَى؛ قاله ابن عباس وغيره، وهو أظهر الأقوال.

وفي الآية استحباب السؤال:

قال تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

وقال ﷺ: (نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين).

ولما سئل ابن عباس، كيف نلت العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول، وجسم غير ملول.

وقيل: السؤال نصف العلم.

وقال الزهري: العلم خزانة، مفتاحها المسألة ".

وسئل الأصمعي: بما نلت ما نلت؟ قال: بكثرة سؤالي، وتلقفي الحكمة الشرود.

وهناك أمثلة كثيرة تدل على حرص الصحابة على السؤال الذي ينتفعون به:

فقد سأله صحابي: أي الإسلام خير؟

وسأله آخر: أي العمل أفضل؟

وسأله آخر: أي العمل أحب إلى الله؟

وسأله آخر: أي الصلاة أفضل؟

وقال له آخر: علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟

وكانوا يسألون ليستفيدوا ويطبقوا ويعملوا، بخلاف كثير من الناس في هذه الأزمان.

وفي قوله تعالى (فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) عامٌّ في كلِّ مَسألةٍ مِن مَسائلِ الدِّينِ –أصولِه وفُروعِه– إذا لم يكُنْ عندَ الإنسانِ عِلمٌ منها أن يسألَ مَن يَعلَمُها؛ ففيه الأمرُ بالتعَلُّمِ والسؤالِ لأهلِ العِلمِ، ولم يؤمَرْ بسُؤالِهم إلَّا لأنَّه يجِبُ عليهم التعليمُ والإجابةُ عمَّا عَلِموه .

وفي تخصيصِ السُّؤالِ بأهلِ الذِّكرِ والعِلمِ نَهيٌ عن سؤالِ المعروفِ بالجَهلِ وعَدَمِ العلمِ، ونهيٌ له أن يتصَدَّى لذلك .

الفوائد :

١. دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النساء، ودلت أيضاً على أنه ما أرسل ملكاً.

٢. كثرة الرسل.

٣. إثبات رسالته ﷺ .

٤. الإشارة إلى أنه خاتم الرسل .

٥. من خصائص الأنبياء الوحي.

٦. أن الله تعالى يرسل الرسل إقامة للحجة.

٧. استحباب سؤال أهل العلم.

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)) .

[الأنبياء : ٨-٩] .

==========

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) أي : وما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ، وينامون ويموتون .

قال البقاعي : بل جعلناهم أجساداً يأكلون ويشربون ، وليس ذلك بمانع من إرسالهم .

وقال القرطبي : الضمير في "جعلناهم" للأنبياء ؛ أي لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب.

وقال ابن كثير : أَيْ بَلْ قَدْ كَانُوا أَجْسَادًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ) أَيْ قَدْ كَانُوا بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مِثْلَ النَّاسِ، وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ، وَلَيْس ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ وَلَا نَاقِصٍ مِنْهُمْ شَيْئًا، كَمَا تَوَهَّمَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ (مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها) .

(وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) أَيْ فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ (وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء) أي : ثمَّ صدَقْنَا رسُلَنا ما وعَدْناهم من إهلاكِ أعدائِهم الكافرينَ المكَذِّبينَ، ونَصْرِهم عليهم، فأنجَينا أولئك الرسُلَ وأتباعَهم الذين آمَنوا بهم مِن أممِهم .

كما قال سُبحانه (ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) .

وقال تعالى (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) .

وقال تعالى (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) .

وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) .

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) .

وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) .

(**وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ**) أي: وأهلَكْنا جميعَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، والإصرارِ على تكذيبِ رُسُلِ الله، فأبَدْناهم، ومحَوْنا ذِكْرَهم .

وَالْإِسْرَافُ : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْمَعَاصِي كَالْكُفْرِ ، وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ إِطْلَاقُ الْمُسْرِفِينَ عَلَى الْكُفَّارِ .

قال ابن عاشور : والمسرفون المفْرِطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب .

الفوائد :

١. أن الرسل كغيرهم من البشر يأكلون ويشربون ويموتون .

٢. أن الرسل خصهم الله بالوحي .

٣. كل نفس ذائقة الموت حتى الرسل .

٤. من رحمة الله بعباده أن جعل الرسل من البشر حتى يفهموا عنهم .

٥. وعد الله حق بنصرة الرسل وأتباعهم وهلاك الكفار .

(لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠)) .

[الأنبياء : ١٠] .

==========

(**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا**) وهو القرآن العظيم .

(**فِيهِ ذِكْرُكُمْ**) أي : شرفكم وعزكم .

وقيل : تذكرة لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب.

قال أبو السعود : أي فيه شرفكم وصِيتُكم كقوله تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) .

وقيل : ما تحتاجون إليه في أمور دينِكم ودنياكم .

وقيل : فيه ما تطلُبون به حَسَنَ الذكرِ من مكارم الأخلاق .

وقيل : فيه موعظتُكم وهو الأنسب بسباق النظمِ الكريم وسياقِه فإن قوله تعالى (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) إنكارٌ توبيخيٌّ فيه بعثٌ لهم على التدبر في أمر الكتابِ والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظِ والزواجر التي من جملتها القوارعُ السابقةُ واللاحقةُ .

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) هذه النعمة ، وتتلقونها بالقبول .

قال الشوكاني : (أفلا تعقلون) للتوبيخ والتقريع ، أي : أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر . كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) .

قال ابن عاشور : وعلى المعنيين يكون لِتفريع قوله تعالى (أفلا تعقلون) أحسنُ موقع لأن الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم متجه على كلا المعنيين فإن من جاءه ما به هديه فلم يهتد يُنكَر عليه سوء عقله ، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به ينكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها كما يكون الفضل في مثله مضاعفاً.

قال السعدي : لقد أنزلنا إليكم – أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب –كتاباً جليلاً وقرآناً مبيناً (فِيهِ ذِكْرُكُمْ) أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، (أَفَلا تَعْقِلُونَ) ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة، فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعة، والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب. (السعدي)

الفوائد :

١. أن القرآن منزل غير مخلوق .
٢. إثبات علو الله تعالى .
٣. أن القرآن فيه الشرف والرفعة لمن تمسك به .
٤. أن القرآن تذكير وعظة وشفاء للناس .

(وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)) .

[الأنبياء : ١١– ١٥] .

==============

قال ابن عاشور : ومناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صَدَق رُسُلَه وعْدَه وهو خبر يفيد ابتداءً التنويه بشأن الرسل ونصرَهم وبشأن الذين آمنوا بهم ... وفيه تعريض بنصر محمد ﷺ وذكر إهلاك المكذبين له تبعاً لذلك ، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين ووصفِ ما حل بهم ليكون ذلك مقصوداً بذاته ابتداءً اهتماماً به ليَقرع أسماعهم ، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة .

(**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً**) أي: وكثيرٌ مِن القُرى الماضيةِ أهلَكْناها وأهلَها المشرِكينَ؛ لكُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم رُسُلَه .

كما قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) .

وقال سُبحانه (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) .

(قصمنا من قرية) المراد أهلها إذ لا توصف القرية بالظلم كقوله (هذه القرية الظالم أهلها) .

قال أبو حيان : والقصم أفظع الكسر عبر به عن الإهلاك الشديد .

(وكم) تقتضي التكثير ، فالمعنى كثيراً من أهل القرى أهلكنا إهلاكاً شديداً مبالغاً فيه.

وقال أبو السعود : وفي لفظ القصْمِ الذي هو عبارةٌ عن الكسر بإبانة أجزاءِ المكسور وإزالةِ تأليفها بالكلية من الدِلالة على قوة الغضبِ وشدة السُّخط ما لا يخفى .

قال الشنقيطي : (وَكَمْ قَصَمْنَا) أصل القصم : أفظع الكسر لأنه الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ، بخلاف الفصم بالفاء فهو كسر لا يبين تلاؤم الأجزاء بالكلية. والمراد بالقصم في الآية : الإهلاك الشديد .

قال ابن عاشور : وفي (كم) الدالة على كثرة العدد إيماء إلى أن هذه الكثرة تستلزم عدم تخلف إهلاك هذه القرى ، وبضميمة وصف تلك الأمم بالظلم أي الشرك إيماءٌ إلى سبب الإهلاك فحصل منه ومن اسم الكثرة معنى العموم ، فيَعلم المشركون التهديد بأن ذلك حالٌّ بهم لا محالة بحكم العموم ، وأن هذا ليس مراداً به قرية معينة ... والقصْم : الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع.

ففي هذه الآية يخبر تعالى أنه أهلك كثيراً من القرى بسبب ظلمهم وكفرهم .

كما قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

والله تعالى لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

والله تعالى يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ.

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

وفِي الآية تَهْدِيدًا لِكُفَّارِ مَكَّةَ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا : أَيْ أَهْلَكْنَا قُرُونًا كَثِيرَةً مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، فَلَا تُكَذِّبُوا رَسُولَنَا لِئَلَّا نَفْعَلَ بِكُمْ مِثْلَ مَا فَعَلْنَا بِهِمْ.

وَالْآيَاتُ الَّتِي أَوْضَحَتْ هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ ;

كَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ لُوطٍ (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).
وَكَقَوْلِهِ فِيهِمْ أَيْضًا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ).
وَقَوْلِهِ فِيهِمْ أَيْضًا (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).
قوله (كانت ظالمة) فيه أن أعظم الظلم الشرك بالله .
فالظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك.

وهو أعظم الظلم وأشده.
كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).
وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي: من المشركين.
قال ابن رجب: فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

والثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث: ظلم العبد لغيره.

كما في الحديث (قال الله تعالى: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم.
وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه.
وعن ابن عمر. قال: قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.
(**وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا**) أي : وأنشأنا بعد هذه القرى التي أهلكناها .
(**قَوْمًا آخَرِينَ**) أي : أمماً أخرى .
قال أبو السعود (وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا) أي بعد إهلاكها (قَوْماً ءاخَرِينَ) أي ليسوا منهم نسباً ولا ديناً ، ففيه تنبيهٌ على استئصال الأولين وقطعِ دابرهم بالكلية .
(**فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا**) أي : فلما رأوا عذابنا وتيقنوا أنه واقع بهم .
قال ابن عاشور : والإحساس : الإدراك بالحس فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.
والبأس : شدة الألم والعذاب.
(**إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ**) أي : إذا هم منها يسرعون فارين هاربين من العذاب .
يركضون : من الركض وهو السير السريع، وأصله: أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجري والسرعة في المشي. والمقصود به هنا: الهرب بسرعة.
قال البقاعي : هاربين عنها مسرعين كمن يركض الخيل – أي يحركها – للعدو ، بعد تجبرهم على الرسل وقولهم لهم (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) .

قال القرطبي : والركض العدو بشدة الوطء ، والركض تحريك الرِّجل ؛ ومنه قوله تعالى (اركض بِرِجْلِكَ) وركضت الفرس برجلي استحثته ليعدو ثم كثر حتى قيل رَكَض الفرسُ إذا عَدَا وليس بالأصل ، والصواب رُكِض الفرسُ على ما لم يسمّ فاعله فهو مركوض.

وقال أبو حيان : والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين.

(**لا تَرْكُضُوا**) أي : لا تفرّوا.

وقيل : إن الملائكة نادتهم لما انهزموا استهزاء بهم وقالت : "لا تركضوا".

قال أبو السعود : (لاَ تَرْكُضُواْ) أي قيل لهم بلسان الحالِ أو بلسان المقالِ من الملَك أو ممن ثمّةَ من المؤمنين بطريق الاستهزاءِ والتوبيخِ : لا تركُضوا .

وقال الشوكاني : (لاَ تَرْكُضُواْ) أي لا تهربوا . قيل : إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم . وقيل : إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم .

(**وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ**) أي : إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أُترف على فلان أي وُسّع عليه في معاشه ، وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال (وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا) .

(**وَمَسَاكِنِكُمْ**) أي : وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تسكنونها وتفتخرون بها .

(**لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**) أي : لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم ؛ استهزاء بهم ؛ قاله قتادة.

وقيل : المعنى "لَعَلَّكُمْ" عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به.

وقيل : المعنى (لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم ؛ قيل لهم ذلك استهزاء وتقريعاً وتوبيخاً.

قال ابن عاشور : قوله تعالى (لعلكم تسألون) من جملة التهكم ، وذكر المفسرون في معنى (تُسألون) احتمالات ستة.

أظهرها : أن المعنى : ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه فلعلكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدَم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك ، وفي هذا تكملة للتهكم.

وقال الشوكاني : أي : تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم . وقيل : المعنى : لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به؛ وقيل : لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم .

(**قَالُوا**) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب

(**يَا وَيْلَنَا**) يدعون بالويل والثبور .

(**إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**) فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف.

قال أبو السعود : وهذا اعترافٌ منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندمٌ عليه حين لم ينفعْهم ذلك.

قال أبو حيان : والظلم هنا الإشراك وتكذيب الرسل وإيقاع أنفسهم في الهلاك .

(**فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ**) أي لم يزالوا يقولون (يا ويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) .

(**حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا**) أي : مثلَ الحصيدِ وهو المحصودُ من الزرع والنبت

(**خَامِدِينَ**) أي : ميتين.

والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيهاً بانطفاء النار.

وفي هذا خطر الترف .

والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش.

قال ابن الجوزي: فأما المترفون، فهم المتنعّمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسَعة العيش، والمفسرون يقولون: هم الجبَّارون والمسلَّطون والملوك، وإنما خص المترَفين بالذكر، لأنهم الرؤساء، ومَن عداهم تبع لهم.

دائماً أهل الغنى والترف هم من يقفون في وجه الرسل ودعوتهم.

ولذلك لم يأت الترف في القرآن إلا في مقام الذم كما تقدم في الآيات السابقة.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ).

وقال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

ولم يذكر الترف إلا في مقام الذم.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ).

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا).

إن التَّرَف مُفسِدٌ للفرد؛ لأنَّه يشغله بشهواتِ بطنه وفَرْجه، ويلهيه عن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، لأنَّه يقتل فيه روحَ الجهاد والجد والخشونة، ويجعله عبدًا لحياة الدَّعة والرفاهية.

وفي هذا يقول الرسول ﷺ (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدِّرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة).

الترف سبب للانحلال والهلاك ودمار الدول.

قال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا).

قال ابن عاشور: وتعليق الأمر بخُصوص المترفين مع أنَّ الرُّسل يُخاطِبون جميع الناس؛ لأنَّ عصيانَهم الأمرَ الموجَّه إليهم هو سبب فسقِهم، وفسق بقيَّة قومهم؛ إذْ هم قادة العامَّة، وزعماء الكُفر، فالخِطاب في الأكثر يتوجَّه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتَّبعهم الدَّهماء؛ فعمَّ الفسق أو غلب على القرية، فاستحقَّت الهلاك.

الفوائد :

١. أن الله أهلك كثيراً من القرى.

٢. التذكير بهلاك الأمم الماضية المكذبة حتى يعتبر غيرهم .

٣. خطر الظلم والشرك وأنه سبب للهلاك والتعذيب.

٤. قوة الله وعظمته.

٥. لا ينفع الفرار من عذاب الله إذا وقع .

٦. لا تنفع التوبة إذا انتهى وقتها .

٧. خطر الترف وأنه سبب للهلاك .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦)) .

[الأنبياء : ١٦] .

==========

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) بل الحق وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً .

قال ابن عاشور : واللعبُ العمل أو القول الذي لا يُقصد به تحصيل فائدة من مصلحة أو دفع مفسدة ولا تحصيل نفع أو دفع ضر ... وإنما يقصد به إرضاء النفس حين تميل إلى العبث كما قيل : "لا بد للعاقل من حَمْقة يعيش بها".

فالله تعالى خلق السماوات وما بينهما بالحق ، لحكم باهرة .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُون).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) ، وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

الفوائد :

١. أن الخالق هو الله .

٢. أن من أعظم مخلوقات الله السماوات والأرض .

٣. أن كل مخلوقات الله لحكمه .

٤. أن الله هو الحكيم الذي يفعل ويخلق لحكمه .

٥. تنزيه الله عن العبث .

(**لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)**) .

[الأنبياء : ١٧] .

==========

(**لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ**) أي: لو أَرَدْنا -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ المحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْنا ذلك مِن عِندِنا، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغ

قال الماوردي : قوله تعالى (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا) فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: ولدًا، قاله الحسنُ.

الثاني: أنَّ اللهوَ النساءُ، قاله مجاهدٌ. وقال قتادةُ: اللهوُ بلغةِ أهلِ اليمنِ: المرأةُ. قال ابنُ جريج: لأنَّهم قالوا: مريمُ صاحبتُه، وعيسى ولدُه!

الثالث: أنَّه اللهوُ الذي هو داعي الهوى، ونازعُ الشهوةِ .

قال ابن كثير : وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا اللَّهْوُ الْمَرْأَةُ بِلِسَانِ أَهْلِ الْيَمَن .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ: والمراد بِاللَّهْوِ هَاهُنَا الْوَلَدُ .

وَهَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مُتَلَازِمَانِ .

وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ مُطْلَقًا) .

الفوائد :

١. وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص .

٢. ادعاء أن لله ولدا أو زوجة منكر عظيم .

٣. أن الله لا يعجزه شيء .

(**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)**) .

[الأنبياء : ١٨] .

==========

(**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ**) أي : بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع .

(**فَيَدْمَغُهُ**) أي : يقهره ويهلكه.

(**فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**) أي : هالك تالف .

(**وَلَكُمُ الْوَيْلُ**) أيها القائلون لله ولداً .

(**مِمَّا تَصِفُونَ**) مما تقولون وتفترون .

قال السعدي : فيه أنَّه تعالى تكفَّل بإحقاقِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ، وأنَّ كُلَّ باطِلٍ قيلَ وجُودِلَ به، فإنَّ اللهَ يُنزِلُ مِن الحَقِّ والعِلمِ والبيانِ ما يَدمَغُه، فيَضمَحِلُّ ويتبيَّنُ لكُلِّ أحَدٍ بُطلانُه، وهذا عامٌّ في جميعِ المسائِلِ الدِّينيَّةِ؛ لا يُوردُ مُبطِلٌ شُبهةً

عَقليَّةً ولا نقليَّةً في إحقاقِ باطلٍ أو رَدِّ حَقٍ، إلَّا وفي أدِلَّةِ اللهِ مِن القواطعِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ ما يُذهِبُ ذلك القَولَ الباطِلَ ويَقمَعُه، فإذا هو مُتبيِّنٌ بُطلانُه لكُلِّ أحَدٍ .

الفوائد :

١. أن الحق منتصر على الباطل ولو طال الزمن .

٢. تهديد من يصف الله بالنقص أو أن له ولداً أو زوجة .

(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)) .

[الأنبياء : ١٩-٢٠] .

==============

(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو سبحانه مالك الأعيان، ومالك التصرف فيها.

قال ابن جرير: أي أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد، وخالق جميعه دون آلهة ومعبود.

وقال ابن كثير: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه.

قال القرطبي: قَولُه تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: مِلكًا وخَلقًا، فكيف يجوزُ أن يُشرَكَ به ما هو عَبدُه وخَلْقُه؟

وقال الشوكاني (وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) عَبِيدًا وَمِلْكًا، وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَمَالِكُهُمْ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ بَعْضُ مَخْلُوقَاتِهِ شَرِيكًا يُعْبَدُ كَمَا يُعْبَدُ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مُقَرِّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا .

قد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم:

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً).

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية، وذلك من جانبين:

الأول: حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه، أو يُشرِك غيره معه في العبادة، وقد نهاه عن ذلك.

الثاني: وحيث إن الجميع عبيد له، فكيف يُعبد مملوك - كائناً من كان - ويُترك المالك، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك، وقد نهى عن ذلك.

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فوائد :

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء .

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

ويدل لذلك أيضاً ما بينّه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

الفائدة الثالثة: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم.

(**وَمَنْ عِنْدَهُ**) يعني الملائكة .

قال الرازي : قوله (وَمَنْ عِندَهُ) المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة ولأنه تعالى وصفهم بأنهم : (يُسَبّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ) وهذا لا يليق بالبشر ... فكأنه تعالى قال : الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته.

قال الخازن : (ومن عنده) يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم .

قال الشوكاني : (وَمَنْ عِنْدَهُ) يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهُمْ بِكَوْنِهِمْ عِنْدَهُ إِشَارَةٌ إِلَى تَشْرِيفِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ الْمُلُوكِ .

(**لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ**) أَيْ : لا يستنكفون عنها .

كما قال (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً) .

(**وَلا يَسْتَحْسِرُونَ**) أَيْ : لَا يَتْعَبُونَ وَلَا يَمَلُّونَ .

قال الشوكان (وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) أَيْ: لَا يَعْيَوْنَ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْحَسِيرِ، وَهُوَ الْبَعِيرُ الْمُنْقَطِعُ بِالْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ .

(**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**) فَهُمْ دَائِبُونَ فِي الْعَمَلِ لَيْلًا وَنَهَارًا، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا، قَادِرُونَ عَلَيْهِ .

قال أبو حيّان: هم الملائكةُ بإجماعِ الأمَّةِ، وصَفَهم بتسبيحٍ دائمٍ .

وقال البِقَاعي: (يُسَبِّحُونَ) أي: يُنزّهونَ المستَحِقَّ للتنزيه بأنواعِ التَّنزيهِ مِن الأقوالِ والأفعالِ التي هي عبادةٌ، فهي مُقتَضيةٌ مع نفيِ النَّقائِصِ إثباتَ الكَمالِ .

وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على عبادتهم وتسبيحهم .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

فالملائكة خلق من خلق الله ، خلقهم من نور ، ووظيفتهم عبادة الله وطاعته .

كما قال تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) .

وقال تعالى (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ).

وقال تعالى (وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

وقال تعالى (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ).

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ).

قال ﷺ (أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا ملك ساجد أو راكع).

وفي هذا فضل التسبيح ، فهو عبادة الملائكة .

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال (سئل رسول الله ﷺ أي الذكر أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده).

وقال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه.

وقال ﷺ (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض) رواه مسلم.

وقال ﷺ (من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد) رواه مسلم.

وقال ﷺ (لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس) رواه مسلم .

الفوائد :

١. عموم ملك الله تعالى.
٢. أن السموات ذوات عدد.
٣. إثبات الملائكة.
٤. عبادة الملائكة لربها وكثرة طاعتها له.
٥. خضوع الملائكة لله تعالى.
٦. ذم من يتكبر عن طاعة الله.

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤)) .

[الأنبياء : ٢١-٢٤] .

==============

(**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ**) الاستفهام في قوله أَمِ اتَّخَذُوا.. للإنكار والتوبيخ. وقوله: يُنْشِرُونَ من النشر بمعنى الإحياء والبعث. يقال: أنشر الله- تعالى- الموتى: إذا بعثهم بعد موتهم.

والمعنى: إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى في العبادة، فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تستطيع أن تعيد الحياة إلى الأموات؟

كلا إنها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم، ومادام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا تستطيع أن تفعل شيئا من ذلك أو من غيره؟

وقوله سبحانه (مِنَ الْأَرْضِ) متعلق بـ(اتخذوا) و«من» ابتدائية، أي: اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للآلهة، أي: اتخذوا آلهة كائنة من الأرض.. وعلى كلا التقديرين فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل. (التفسير الوسيط)

قال ابن كثير : يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ آلهة فقال (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) أَيْ أَهُمْ يُحْيُونَ الْمَوْتَى وَيَنْشُرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، أَيْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ جَعَلُوهَا لِلَّهِ نِدًّا وَعَبَدُوهَا مَعَهُ؟

كما قال تعالى (واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) .

(**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ**) أي : السماوات والأرض .

(**لَفَسَدَتَا**) أي: لو كان في السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله تعالى، تدبر أمرهما، لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب.

وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم.. فيختل النظام لهذا الكون، ويضطرب الأمر، ويعم الفساد في هذا العالم.

كقَوْلِهِ تَعَالَى (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (لَفَسَدَتا) أي : لخربتا وبطلتا وهلكَ من فيهما ، لوجود التمانع بين الآلهة ، فلا يجري أمر العالَم على النظام ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعداً لم يَسْلَم من الخلاف.

(**فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**) أي: فتنزَّه اللهُ ربُّ العَرشِ وتعالى عمَّا يَصِفُه به الواصِفونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ، ويَكذِبونَ عليه، كادِّعائِهم أنَّ له ولدًا وشَريكًا .

قال القرطبي : نزَّه نفْسَه، وأمَر العبادَ أن ينزِّهوه عن أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ).

(**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**) أي: لا يسأله سائل سبحانه عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال. وهداية وإضلال، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وإسعاد وإشقاء.. لأنه هو الرب المالك المتصرف في شئون خلقه، وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم

عبيده، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقي وهلك.

(**وَهُمْ يُسْأَلُونَ**) يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده .

قال ابنُ تيميَّةَ: بيَّن سُبحانه أنَّه يفعَلُ ما يشاءُ فلا أحَدَ يُمكِنُه أن يُعارِضَه إذا شاء شيئًا، بل هو قادِرٌ على فِعلِ ما يشاءُ، بخلاف المخلوقِ الذي يشاءُ أشياءَ كثيرةً ولا يُمكِنُه أن يفعَلَها؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ في الحديثِ الصحيحِ : لا يقولَنَّ أحدُكم: اللهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللهمَّ ارحَمْني إنْ شئتَ؛ فإنَّ اللهَ لا مُكرِهَ له، ولكِنْ لِيَعزِمِ المسألةَ .

وقال ابنُ القيِّمِ: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) لكَمالِ حِكمَتِه وعِلْمِه، ووَضْعِه الأشياءَ مواضِعَها، وأنَّه ليس في أفعالِه خَلَلٌ ولا عَبَثٌ ولا فَسادٌ يُسأَلُ عنه كما يُسأَلُ المخلوقُ، وهو الفَعَّالُ لِما يريدُ، ولكِنْ لا يُريدُ أن يفعَلَ إلَّا ما هو خَيرٌ ومَصلحةٌ، ورَحمةٌ وحِكمةٌ، فلا يَفعَلُ الشَّرَّ ولا الفسادَ ولا الجَورَ، ولا خِلافَ مُقتضَى حِكمَتِه؛ لكَمالِ أسمائِه وصِفاتِه .

وقال الواحدي: قال المفسِّرون: إنَّ اللهَ تعالى لا يُسأَلُ عمَّا يَحكُمُ في عبادِه مِن إعزازٍ وإذلالٍ، وهُدًى وضَلالٍ، وإسعادٍ وإشقاءٍ؛ لأنَّه الرَّبُّ مالِكُ الأعيانِ، والخَلقُ يُسأَلونَ سُؤالَ توبيخٍ؛ يقال لهم يومَ القيامةِ: لِمَ فَعلتُم كذا وكذا؛ لأنَّهم العبيدُ، وواجِبٌ عليهم امتِثالُ أمرِ مَولاهم، واللهُ تعالى ليس فوقَه أحدٌ يقولُ له لِشَيءٍ فَعَله: لِمَ فعَلْتَه؟! .

(**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً**) كرر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ ، أي : هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم ؟

(**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**) أي قل لهم -يا محمد- ردًا عليهم وتفنيدًا لمزاعمهم: أحضروا برهانكم ودليل صدقكم على مُدَّعاكم، عقلياً كان أَو نقلياً .

والمقصود من طلب البرهان على صحة شركهم تعجيزهم وتحديهم والسخرية بمزاعمهم، إذ لا يوجد برهان عليه عقلاً، كما أَشار إليه قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ولوضوح عجز هؤلاء الشركاءِ عن حماية أَنفسهم مما يضرهم أو أن يجلبوا لأنفسهم ما ينفعهم، فكلهم تحت سلطانه تعالى.

(**هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ**) أي: هذا القُرآنُ الذي أُنزِلَ علَيَّ .

(**وَذِكْرُ مَن قَبْلِي**) وهذه كتُبُ الأنبياءِ المتقَدِّمةُ -كالتَّوراةِ، والإنجيلِ- على خِلافِ ما تَزعُمونَ، فهل وجَدْتُم في شَيءٍ منها اتخاذَ آلهةٍ مع اللهِ؟! أم كُلُّها ناطِقةٌ بالتَّوحيدِ آمِرةٌ به ؟

قال ابن الجوزي : والمعنى : هذا القرآن ، وهذه الكتب التي أُنزلت قبله ، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إِله سواه؟ فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به.

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أخبر أُمَّته بأن لهم إلهاً غير الله!.

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُون**) أي: بل أكثَرُ هؤلاء المشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه اللهُ؛ فهم مُعرِضونَ عنه، فلا يتفَكَّرونَ فيه، ولا يُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه .

الفوائد :

١. الإنكار أشد الإنكار على من أتخذ إلهاً شريكاً مع الله .

٢. العاجز لا يكون إلهاً .

٣. أن من يميت ويحيي هو الذي يستحق العبادة .

٤. يمتنع غاية الامتناع وجود آلهة أخرى .
٥. وجوب تنزيه الله عن كل عيب ونقص وشريك .
٦. إثبات العرش ، وأنه أعظم المخلوقات .
٧. الله لا يسأل عما يفعل لكمال سلطانه ولكمال حكمته .
٨. المخلوق هو الذي يسأل .
٩. دلالة القرآن والكتب السابقة على بطلان الشرك .
١٠. خطر الجهل .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)) .
[الأنبياء : ٢٥] .

==========

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ ...) أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا نُوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فوحِّدوني، وأخْلِصوا العِبادةَ لي .

قال ابن عطية : لما أخبرهم تعالى أنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أتبع ذلك بإعلامهم أنه ما أرسل قط رسولاً إلا أوحى إليه أن الله تعالى فرد صمد ، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النبوات .

فالأنبياء كلهم دعوتهم واحدة وهي توحيد الله وترك الشرك .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُون) .

وقال الله سُبحانه (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) .

ونوحٌ عليه السلام قال لقومِه (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وهود عليه السلام قال لقومِه (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وصالحٌ عليه السلام قال لقومِه (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وإبراهيمُ عليه السلام قال لقومِه (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ) .

وشعيبٌ عليه السلام قال لقومِه (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وعيسى عليه السلام قال لقومِه (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

قال ابنُ تَيميَّةَ : فإنَّ الرُّسُلَ جميعَهم أُمِروا بالتَّوحيدِ وأَمَروا به؛ قال اللهُ تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) فبَيَّن أنَّه لا بدَّ أن يوحيَ بالتَّوحيد إلى كلِّ رسولٍ .

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِد) متفق عليه .

معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف .

أولاد العلات : هم الأخوة للأب من أمهات شتى .

معنى الحديث : أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

الفوائد :

١. أن الحكمة في إرسال الرسل هي عبادة الله وحده وترك ما سواه .

٢. دلت الآية على أن الرسل اتفقت دعوتهم على التوحيد وإن اختلفت شرائعهم .

٣. أن الله أرسل في كل أمة رسولاً .

كما قال تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) .

وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

٤. عظم شأن التوحيد وأنه واجب على جميع الأمم .

٥. كثرة الرسل .

٦. الإشارة إلى أن محمداً هو خاتمهم .

٧. وجوب عبادة الله وحده .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)) .

[الأنبياء : ٢٦ -٢٩] .

==============

(**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**) أي: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحمنُ ولدًا له.

وهذا الولد المزعوم على زاعمه لعائن الله، قد جاء مفصلاً في آيات أخر، كقوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) وقوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ).

قال ابن عاشور : وقد كانت خُزاعة من سكان ضواحي مكة يزعمون أن الملائكة بنات الله من سَرَوات الجن وشاركهم في هذا الزعم بعضٌ من قريش وغيرِهم من العرب.

قال الشوكاني: يصِحُّ حَملُ الآيةِ على كلِّ من جعل لله ولدًا، وقد قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقالت طائفةٌ من العرب: الملائكةُ بناتُ الله .

(**سُبْحَانَهُ**) أي : تنزه عن أن يكون له ولد .

قال ابن عاشور : لما كان اتخاذ الولد نقصاً في جانب واجب الوجود أعقب مقالتهم بكلمة (سبحانه) تنزيهاً له عن ذلك فإن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص العارض بفقد الولد كما قال تعالى في سورة يونس (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني) ولما كان المراد من قوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولداً) أنهم زعموا الملائكة بنات الله تعالى أعقب حرف الإضراب عن قولهم بالإخبار بأنهم عبادٌ دون ذِكرِ المبتدأ للعلم به.

(**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**) أَيِ: الْمَلَائِكَةُ عِبَادُ اللَّهِ مُكْرَمُونَ عِنْدَهُ فِي مَنَازِلَ عَالِيَةٍ وَمَقَامَاتٍ سَامِيَةٍ، وَهُمْ لَهُ فِي غَايَةِ الطَّاعَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

قال الشنقيطي : جَرَتِ العادةُ في القرآنِ: بأن اللَّهَ يَرُدُّ على الكفرةِ في ادعاءِ الولدِ بأنه مَالِكُ كُلِّ شيءٍ، وأن الخلقَ عَبِيدُهُ، كما قال (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) لأن العبدَ لا يمكنُ أن يكونَ وَلَدًا.

(**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**) أَيْ : لَا يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم بِهِ، بَلْ يُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ تَعَالَى عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ .

قال الآلوسي : (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) أي : لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو ديدن العبيد المؤدبين ففيه تنبيه على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره عز وجل وتأدبهم معه تعالى .

وقال ابن عاشور : فقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) معناه لا يصدر منهم قول قبل قوله ، أي لا يقولون إلاّ ما أذن لهم أن يقولون.

(**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**) أي: يعلَمُ اللهُ ما سيَعمَلُه الملائِكةُ مِن أقوالٍ وأفعالٍ فيما يَستَقبِلونَه، ويَعلَمُ ما مضى مِمَّا عَمِلوه؛ فلا خُروجَ لهم عن عِلمِه، كما لا خُروجَ لهم عن أمْرِه وتَدبيرِه .

(**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**) أي: ولا يَشفَعُ الملائِكةُ إلَّا لِمَن ارتَضى اللهُ الشَّفاعةَ له .

كما قال تعالى (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

قال القرطبي: والملائِكةُ يَشفَعونَ غَدًا في الآخرةِ، كما في صحيحِ مُسلمٍ وغَيرِه، وفي الدُّنيا أيضًا؛ فإنَّهم يَستَغفِرونَ للمؤمنينَ ولِمَن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيلُ .

وقال ابن جُزَي : يحتمِلُ أن تكونَ هذه الشَّفاعةُ في الآخرةِ، أو في الدنيا وهي استغفارُهم لِمَن في الأرضِ .

(**وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ**) أي : من خوفه ورهبته .

قال البيضاوي : وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء.

(**مُشْفِقُونَ**) خائفون .

قال الرازي : هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أحدها : تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال : (لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (وَهُمْ مّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) ومن حيث الوعيد.

وثانيها : تدل أيضاً على أن الملائكة معصومون لأنه قال : (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) .

(**وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ**) أَيْ : مَنِ ادَّعَى مِنْهُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ مَنْ دُونِ اللَّهِ أَيْ مَعَ اللَّهِ .

(**فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ**) فسنُعاقِبُه بإدخالِه جهنَّمَ .

قال الرازي : فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فإنا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء ، وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

وقال ابن كثير : وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ وُقُوعُهُ، كَقَوْلِهِ (قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ) وقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ) .

وقال ابن عاشور : الشرط الذي في قوله تعالى : (ومن يقل منهم إني إله من دونه) الخ... شرط على سبيل الفرض ، أي لو قاله واحد منهم مع العلم بأنهم لا يقولونه لأجل ما تقرر من شدة خشيتهم ... فالمقصود من هذا الشرط التعريض بالذين ادَّعوا لهم

الإلهية بأنهم ادعوا لهم ما لا يرضَونه ولا يقولونه ، وأنهم ادعوا ما يوجب لقائله نار جهنم على حد (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) .

(**كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**) أي : كذلك نجزي كلَّ من ظلَمَ نفسَه بوَضْعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعها، فأشرك باللهِ وعبَدَ غَيرَه .

ذَكَرَ هذا الوعيدَ في الملائكةِ وخَصَّهم بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على أنَّ دعوى الإلهيَّةِ لا تجوزُ لأحدٍ مِن المخلوقينَ: لا ملَكٍ ولا غَيرِه، وأنَّه لو قُدِّرَ وقوعُ ذلك مِن مَلَكٍ مِن الملائكةِ، لكان جزاؤه جهنَّمَ، فكيف مَن دُونَهم .

قال الشوكاني : أي كَمَا نَجْزِي غَيْرَهُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ الْفَظِيعِ نَجْزِي الظَّالِمِينَ، أَوْ مِثْلَ مَا جَعَلْنَا جَزَاءَ هَذَا الْقَائِلِ جَهَنَّمَ، فَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ الْوَاضِعِينَ الْإِلَهِيَّةَ وَالْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَالْمُرَادُ بِالظَّالِمِينَ الْمُشْرِكُونَ .

فالظلمَ في لغةِ العربِ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِه، اعلموا أَنَّ وضعَ الشيءِ في غيرِ موضعِه على نَوْعَيْنِ:

أحدُهما: أن يكونَ بَالِغًا في غايةِ القباحةِ والشناعةِ.

والثاني: أن يكونَ دونَ ذلك.

أما وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِه البالغ غاية الشناعة: فهو وضعُ العبادةِ في غيرِ خالقِ السماواتِ والأرضِ، فَمَنْ عَبَدَ غيرَ الذي خَلَقَهُ ورَزَقَهُ فَقَدْ وضعَ الأمرَ في غيرِ موضعِه، فهو أعظمُ الظالمين، وأخبثُ الواضعين للشيءِ في غيرِ موضعِه .

ولهذا المعنَى كَثُرَ في القرآنِ العظيمِ إطلاقُ الظلمِ مُرَادًا به الكفرُ، وهو أخبثُ أنواعِه .

ومنه قولُه (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً) .

وقولُه (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وقولُه (وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ) .

وقال عن العبدِ الحكيمِ لقمانَ (يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقد ثَبَتَ في صحيحِ البخاريِّ عن النبيِّ ﷺ أنه فَسَّرَ قولَه في هذه السورةِ الكريمةِ- سورةِ الأنعامِ- (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) قال: معناه: لَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم بِشِرْكٍ .

النوعُ الثاني من أنواعِ الظلمِ: هو وضعُ الطاعةِ في غيرِ

الفوائد :

١. الإنكار على من يدعي أن لله ولداً .

٢. وجوب تنزيه الله على كل عيب ونقص .

٣. أن الملائكة عباد من عباد الله .

٤. أنَّ كمالَ المخلوقِ في تحقيقِ عبوديتِه لله تعالى ، وكلَّما ازداد العبدُ تحقيقًا للعبوديةِ ازداد كمالُه، وعلَتْ درجتُه، ومَن توهَّم أنَّ المخلوقَ يخرجُ عن العبوديةِ بوجهٍ مِن الوجوهِ، وأنَّ الخروجَ عنها أكملُ؛ فهو مِن أجهلِ الخلقِ وأضلِّهم .

٥. أنَّ إبليسَ اللعينَ لما كان قد عصَى اللهَ ما أمَرَه؛ دلَّ على أنَّه ليس مِن العبادِ المكرَمينَ، الذين هم الملائكةُ .

٦. في قولِه تعالى: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ دليلٌ على كمالِ طاعةِ الملائكةِ وانقيادِهم .

٧. في قَولِ الله تعالى (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) يدُلُّ على أنَّ الملائِكةَ معصومونَ؛ لأنَّه قال: وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .

٨. أنَّ الملائكةَ موكَّلونَ بأعمالٍ يقومونَ بها، كما أمَرَ الله تعالى بها .

٩. هذه الآيةُ مِن أدِلَّةِ إثباتِ الشَّفاعةِ، وأنَّ الملائِكةَ يَشفَعونَ .

١٠. دليلٌ قاطِعٌ على أنَّ حُقوقَ الله الخالِصةَ له مِن جَميعِ أنواعِ العبادةِ لا يجوزُ أن يُصرَفَ شَيءٌ منها لأحَدٍ، ولو مَلَكًا مُقرَّبًا، أو نبيًّا مُرسَلًا .

١١. إثبات الملائكة.

١٢. عبادة الملائكة لربها وكثرة طاعتها له.

١٣. خضوع الملائكة لله تعالى.

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠)) . [الأنبياء : ٣٠] .

==========

(**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) يقولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ وَقَهْرِهِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيِ الْجَاحِدُونَ لِإِلَهِيَّتِهِ الْعَابِدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ الْمُسْتَبِدُّ بِالتَّدْبِيرِ، فكيف يليق أن يعبد معه غَيْرُهُ، أَوْ يُشْرَكَ بِهِ مَا سِوَاهُ . (ابن كثير)

قال أبو حيان : هذا استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة، ودلالة على تنزيهه عن الشريك ، وتوكيد لما تقدم من أدلة التوحيد، ورد على عبدة الأوثان من حيث إنّ الإله القادر على هذه المخلوقات المتصرف فيها التصرف العجيب، كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع والرؤية هنا من رؤية القلب.

وقال أبو السعود : (أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَرُواْ) تجهيلٌ لهم بتقصيرهم في التدبُّر في الآيات التكوينيةِ الدالةِ على استقلاله تعالى بالألوهية وكونِ جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوتِه ، والهمزةُ للإنكار .

واختلف في المراد بالرؤية هنا :

فقيل : المراد رؤية القلب لا البصر والمقصود بها العلم .

ورجحه : الطبري، وأبي حيان، وابن عطية، والخازن .

قال الطبري : أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصار قلوبهم فيروا بها ويعلموا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ليس فيهما ثقب بل كانت ملتصقتين .

وقال ابن عطية : فالرؤية الموقف عليها رؤية القلب .

وقال الخازن : أولم يعلم الذين كفروا .

وقيل : من رؤية البصر وذلك على الاختلاف في معنى الرتق والفتق .

(**أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**) الرتق في اللغة : السد ، الفتق : الشق .

وقد اختلف العلماء في معنى الآية :

فقيل : أن المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض .

وقيل : أن السموات كانت رَتْقاً لا تُمْطِر ، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنْبِت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات.

قال الرازي : وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين .

وقال ابن عطية : وقال فرقة السماء قبل المطر رتق والأرض قبل النبات رتق ففتقهما تعالى بالمطر والنبات ، كما قال الله تعالى (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع) وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعديد النعمة والحجة بمحسوس بين .

قال القرطبي : واختار هذا القول الطبري ؛ لأن بعده (وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ) .

قلت : وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة ؛ ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية ؛ ليدل على كمال قدرته ، وعلى البعث والجزاء.

ورجحه الشنقيطي وقال : وقد دلت على هذا القول قرائن من كتاب الله تعالى.

الأولى : أن قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا) يدل على أنهم رأوا ذلك.

لأن الأظهر في رأى أنها بصرية ، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها. فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر ، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية : أنه أتبع ذلك بقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ) والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله. أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء ، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة : أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى (والسمآء ذَاتِ الرجع والأرض ذَاتِ الصدع) لأن المراد بالرَّجْع نزول المطر منها تارة بعد أخرى ، والمراد بالصَّدْع : انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى (فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً) .

قال السعدي : أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما رتقا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت; قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] دليلا على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟

(**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**) أي: وخَلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ فيه حياةٌ .

قال ابن الجوزي : وفي هذا الماء قولان.

أحدهما : أنه الماء المعروف ، والمعنى : جعلنا الماء سبباً لحياة كل حيٍّ ، قاله الأكثرون.

والثاني : أنه النُّطفة ، قاله أبو العالية.

قال الشوكاني : أَيْ أَحْيَيْنَا بِالْمَاءِ الَّذِي نُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَشْمَلُ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتَ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَاءَ سَبَبُ حَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمَاءِ هُنَا النُّطْفَةُ، وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَهَذَا احْتِجَاجٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبَدِيعِ صُنْعِهِ .

(**أَفَلا يُؤْمِنُونَ**) إنكار لعدم إيمانِهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتماً من الآيات الآفاقية والأنفسيةِ الدالةِ على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورةً تحت ملكوته وقدرتِه . (أبو السعود) .

قال الشوكاني : وَالْهَمْزَةُ فِي (أَفَلا يُؤْمِنُونَ) لِلْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا مَعَ وُجُودِ مَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ .

الفوائد :

١. الإنكار على الكفار بعدم الاعتبار والاتعاظ .

٢. الحث على التفكر في آيات الله ومخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته .

٣. من أعظم آيات الدالة على وحدانيته نزول المطر من السماء والنبات من الأرض .

٤. أن كل شيء حي خلق من ماء .

٥. توبيخ الكفار على عدم إيمانهم مع ما يرون من الآيات العظيمة في السماوات والأرض وفي سائر المخلوقات .

٦. نعمة الماء .

(**وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)**) .

[الأنبياء : ٣١] .

==========

(**وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ**) أي: وجعلنا في هذه الأرض جبالا ثوابت راسخات، لتمسكها من الاضطراب.

الرواسي: الجبال مأخوذ من الرسو، وهو ثبات الأجسام الثقيلة.

(**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**) أي لئلا تميد بكم وتضطرب بما عليها.

والميد الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً يقال: ماد يميد ميداً.

قال ابن عاشور : والرواسي : الجبال ، لأنها رست في الأرض ، أي رسخت فيها ، والمَيْد : الاضطراب.

قال ابن كثير : أَيْ جِبَالًا أَرْسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِالنَّاسِ، أَيْ تَضْطَرِبَ وَتَتَحَرَّكَ، فَلَا يحصل لهم قرار عليها لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ الرُّبُعِ. فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحِكَمِ وَالدَّلَالَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ أَيْ لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ.

قال السعدي : ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك، من المصالح والمنافع، ما حصل .

كما قال تعالى (وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا) .

وقال تعالى (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون).

وقال تعالى (والجبال أرساها).

وقال تعالى (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ).

وقال تعالى (أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً).

(**وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**) أي : ثغرا في الجبال يسلكون فيها طريقا من قطر إلى قطر ومن إقليم إِلَى إِقْلِيمٍ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فَجْوَةً ثَغْرَةً لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

قوله (وجعلنا فيها ...) اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله (فيها) على قولين :

فقيل : على الأرض .

ورجحه : الطبري ، وأبي حيان ، وابن عطية ، والرازي .

قال الطبري : جعلنا هذه الفجاج في الأرض ليهتدوا إلى السير فيها .

قال أبو حيان : والظاهر أن الضمير في (فيها) عائد إلى الأرض .

وقال ابن عطية : والضمير في قوله تعالى (فيها) يحتمل أن يعود على الرواسي ، ويحتمل أن يعود على الأرض وهو أحسن .

وقيل : يعود على الجبال .

ورجحه : الواحدي ، القرطبي ، والثعلبي ، والبغوي ، وابن كثير ، والخازن ، والشوكاني ، والسعدي .

قال السعدي : ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالا كثيرا جدا، فلو بقيت بحالها، جبالا شامخات، وقللا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاجا سبلا أي: طرقا سهلة لا حزنة، لعلهم يهتدون إلى الوصول، إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

والفج الطريق الواسع .

قال الزجاج : الفِجَاج جمع فَجّ ، وهو كل منخَرق بين جبلين .

وقال القرطبي : والفجُّ الطريق الواسع بين الجبلين.

(**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**) أي : إلى مصالحهم ومَهمّاتهم.

قال ابن عاشور : **وجملة** (لعلهم يهتدون) مستأنفة إنشاء رجاءِ اهتداء المشركين إلى وحدانية الله فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة ، ويجوز أن يراد بالاهتداء الاهتداء في السير ، أي جعلنا سبلاً واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم ، فتكون هذه منة أخرى وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله.

الفوائد :

١. الحكمة من خلق الجبال وأنها رواسي للأرض .

٢. أن أفعال الله كلها لحكمة .

٣. من أعظم مخلوقات الله الجبال .

٤. من نعمة الله تعالى خلق الجبال حتى تثبت الأرض لئلا تضطرب وتميد .

(**وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)**) .

[الأنبياء : ٣٢] .

==========

(**وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا**) أي : وجعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط .

والمراد بالسماء هنا السماوات ذات الأجرام، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين:

المعنى الأول: العلو، كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف، بل ينزل من العلو.

المعنى الثاني: المراد بالسماء السقف كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى (والسَّمَاءَ بِنَاءً).

فتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ :

الْأُولَى : أَنَّ اللَّهَ – جَلَّ وَعَلَا – جَعَلَ السَّمَاءَ سَقْفًا ، أَيْ : لِأَنَّهَا لِلْأَرْضِ كَالسَّقْفِ لِلْبَيْتِ .

كما قال تعالى (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) .

الثَّانِيَةُ : أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ السَّقْفَ مَحْفُوظًا .

فَبَيَّنَ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنَ السُّقُوطِ :

قال تعالى (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

وَقَال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) .

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا) .

وَبَيَّنَ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ مِنَ التَّشَقُّقِ وَالتَّفَطُّرِ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَرْمِيمٍ وَلَا إِصْلَاحٍ كَسَائِرِ السُّقُوفِ إِذَا طَالَ زَمَنُهَا .

قال تعالى (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) .

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) أَيْ : لَيْسَ فِيهَا مِنْ شُقُوقٍ ، وَلَا صُدُوعٍ ، وَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ السَّقْفَ الْمَذْكُورَ مَحْفُوظٌ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ .

قال تعالى (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) .

(**وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ**) أَيْ : لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الِاتِّسَاعِ الْعَظِيمِ وَالِارْتِفَاعِ الْبَاهِرِ، وَمَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنَ الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قدرها إلا الله الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا.

قال السعدي : (وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات .

كَقَوْلِهِ (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) .

وَقَال تعالى (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) .

وَقَال تعالى (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

الفوائد :

١. قدرة الله العظيمة في جعل السماء سقفاً للأرض .

٢. حفظ الله للسماء من السقوط والوقوع وهذا من أعظم آيات الله العظيمة الدالة على عظمته وقدرته .

٣. عظم خلق السماء .

٤. أن السماء محفوظة من الشقوق والخروق والانفطار .

٥. أن خلق السماء من أعظم الأدلة على البعث .

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)**) .

[الأنبياء : ٣٣] .

==========

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**) أَيْ : هَذَا فِي ظَلَامِهِ وَسُكُونِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأُنْسِهِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى وَعَكْسُهُ الْآخَرُ .

فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللهِ – جل وعلا – الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونهما آيتين وكونهما نعمتين، وبَيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) .

وَقَوْلِهِ (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ).

وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعني النهار .

وَقَال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ).

فجعل الليلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا للسكونِ والهدوءِ وعدمِ الحركةِ ليستريحَ الناسُ من كَدِّ الأعمالِ والتعبِ في النهارِ، ثم يجعلُ النهارَ مُضِيئًا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ الناسِ في حوائجِهم واكتسابِ معايشهم في نورٍ ساطعٍ من غيرِ فتيلةٍ ولاَ زيتٍ ولاَ حاجةٍ إلى مؤنة.

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) هَذِهِ لَهَا نُورٌ يَخُصُّهَا وَفَلَكٌ بِذَاتِهِ وَزَمَانٌ عَلَى حِدَةٍ وَحَرَكَةٍ وسير خاص، وهذا بنور آخَرَ وَفَلَكٍ آخَرَ وَسَيْرٍ آخَرَ وَتَقْدِيرٍ آخَرَ .

(**كُلٌّ فِي فَلَكٍ**) أي: كلٌّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ في فلَكٍ دائرٍ، يجْرونَ بسُرعةٍ كالسَّابحِ في الماءِ .

كما قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون) .

الفوائد :

١. من آيات الله الدالة على وحدانيته خلق الليل والنهار .

٢. الحكمة في تعاقب الليل والنهار ، هذا للهدوء والنوم وهذا للمعاش والتكسب .

٣. من آيات الله أيضاً الدالة على وحدانيته خلق الشمس والقمر .

٤. الحكمة في تعاقب الشمس والقمر .

٥. عظمة خلق الله في هذا الكون الفسيح العظيم .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)) .

[الأنبياء : ٣٤- ٣٥] .

=============

سببها :

قال ابن جزي : أن الكفار طعنوا على النبي ﷺ بأنه بشر يموت ، وقيل : إنه تمنوا موته ليشمتوا به ، وهـذا أنسب لما بعده .

وقال الخازن : نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون نشمت بموته، فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى أن الله تعالى قضى أن لا يخلد في الدنيا بشراً لا أنت ولا هم فإن مت أنت أفيبقى هؤلاء، وفي معناه قول القائل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا .

قال الرازي : قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مّن قَبْلِكَ الخلد) ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : قال مقاتل : أنا أناساً كانوا يقولون إن محمداً ﷺ لا يموت فنزلت هذه الآية.

وثانيها : كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أي قضى الله تعالى أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت أفائن مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفي معناه قول القائل :

فقل للشامتين بنا أفيقوا.. سيلقى الشامتون كما لقينا

وثالثها : يحتمل أنه لما ظهر أنه عليه السلام خاتم الأنبياء جاز أن يقدر مقدر أنه لا يموت إذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الأنبياء عليهم السلام في الموت.

(**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ**) يا محمد .

(**الْخُلْدَ**) في الدنيا .

(**أَفَإِن مِّتَّ**) يا محمد .

(**فَهُمُ الْخَالِدُونَ**) أي : يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء .

(**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**) يخبر تعالى إخبارًا عامًا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت.

كما قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) .

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ).

قوله تعالى (فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) المراد بها الحصون التي في الأرض المبنية، لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، وهذا قول الأكثر [قاله القرطبي] وقيل: المراد بالبروج بروج مبنية في السماء، لكن هذا القول ضعيف، لأن الله قال (مشيّدة) وهذا الوصف لا يكون أبداً للبروج السماوية، وإنما يكون للقصور العالية. [قاله الشيخ ابن عثيمين].

فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولاً.

الموت: يموت الصالحون ويموت الطالحون، ويموت المجاهدون ويموت القاعدون، يموت مريدوا الآخرة، ويموت مريدوا الدنيا.

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب .... متى حط عن نعشه ذاك يركب

إنه جدير بمن الموت مصرعُه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أنْ لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهب إلا له.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي عقل عقلاً .

قال بعض العلماء لأحد إخوانه: احذر الموت في هذه الدنيا قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده .

قال أبو الدرداء: إذا ذكرت الموتى فعد نفسك أحدهم .

قال الدّقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرمَ بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة).

قالت عائشة لامرأة: أكثري ذكر الموت يرق قلبك.

وقال الأوزاعي: من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير، ومن عرف أن منطقه من عمله قل كلامه.

وقال ثابت البناني: ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله.

كما كان ﷺ يقول (اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْك تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ أَعُوذُ بعزَّتِكَ؛ لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ أنْ تُضلَّني، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لاَ تَمُوتُ، وَالجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُون) مُتَّفَقٌ عَلَيه.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته .... يوماً على آلة حدباء محمولُ

الموت: لا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً، ولا يخاف عظيماً، لا يستأذن على الملوك، ولا يلج من الأبواب.

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ------ إذا جن ليل هل تبقى إلى الفجر .

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ------ إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ------ وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ------ وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ------ وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر

وكم من عروس زينوها لزوجها ------ وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

فمن عاش ألفاً وألفين------ فلا بد من يوم يسير إلى القبر

قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها .

ونظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، فبكى وقال: والله لولا الموت لكنت بكِ مسروراً .

الموت بابٌ وكلُ الناس داخلُه .... يا ليت شعري بعد البابِ ما الدارُ

قال الشاعر:

هو الموتُ ما منه ملاذ ومهرب ... متى حط ذا عن نعشه ذاك يركبُ.

وقال الآخر:

الموت بابٌ وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدارُ.

- لقد دعانا النبي ﷺ إلى الإكثار من ذكر الموت فقال ﷺ : (أكثروا ذكر هاذم اللذات).

لأن الإكثار من ذكره: يزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، ويحث على العمل والاجتهاد، يرضى بالقليل من الدنيا ، يريح القلب من همّ الدنيا، ويقصر الأمل، يهون على العبد مصائب الدنيا، يمنع من الأشر والبطر والتوسع من الدنيا، يحث على التوبة والاستدراك، يرق القلب، يدعو إلى التواضع وترك الكبر والظلم .

قال الحسن: من أكثر من ذكر الموت هانت عليه الدنيا.

- وينبغي الاستعداد للموت بالعمل الصالح .

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَاءِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

قال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وحياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك) رواه الحاكم.

وقال ابن عمر: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك) رواه البخاري.

لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ) رواه مسلم.

وقد نقل النووي تفسير جملة (أو خاصة أحدكم) بأنها الموت يأتي فيحول بين المرء وبين العمل حتى يتمنى المرء أن يرجع إلى الدنيا ليتمكن من عمل صالح طالما أعرض عنه في دار الدنيا.

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَاءِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

وقال ﷺ (يتبع الميت ثلاثة أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) متفق عليه.

قال رجل يوصي آخر: يا أخي! احذر الموت في هذه الدار من قبل أن تصير إلى دار تتمنى بها الموت فلا تجده.

وقال ابن السماك: إن الموتى لم يبكوا من الموت ولكنهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا داراً لم يتزودوا لها.

قال السعدي: هذه الآية الكريمة، فيها التزهيد في الدنيا بفنائها، وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر.

تنبيه :

هذه الآية تدل على أن الخضر قد مات وليس بحي .

وأكثر العلماء على نبوة الخضر وأنه نبي، وقد دل على نبوته أدلة:

قوله تعالى (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) قال أكثر المفسرين الرحمة هنا النبوة، كما في تفسير القرطبي.
وقوله تعالى عنه (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) دليل واضح بأن ذلك بأمر كم الله له وحياً أوحاه إليه، فهو بالوحي نبي.
قوله تعالى حكاية عن موسى (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ...).
قال ابن عطية: الخضر نبي عند الجمهور، وقيل هو عبد صالح غير نبي، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي الله.
والخضر ميت وليس بحي خلافاً لبعض العلماء الذين قالوا إنه حي الآن.
ورجحه القرطبي.
وممن نصر القول بحياته: الإمام النووي في شرحه على مسلم، وابن الصلاح.
وممن قال بوفاته: الإمام البخاري، وإبراهيم الحربي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن العربي، وابن حجر، وابن عطية، وابن كثير، والشنقيطي.
والأدلة على موته:
أ-قوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ).
فهذه الآية صريحة في نفي الخلد والبقاء لأي بشر.
ب- وقوله ﷺ (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد ...).
فهذا الحديث يدل على أن كل حي في زمان النبي ﷺ سيموت ولن يبقى منهم أحد بعد المائة السنة، والخضر داخل في هذا.
ج- وقوله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ).
فمبقتضى هذه الآية كان يلزم الخضر عليه السلام لو كان حياً – أن يحضر إلى الرسول ﷺ فيؤمن به ويشهد برسالته ويبايعه وينصره في دعوته وجهاده، فلما لم يحصل من ذلك شيء كان دليلاً على موته وعدم بقاءه.
(**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**) أَيْ : نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فننظر مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ
قال ابْن عَبَّاس : وَنَبْلُوكُمْ يَقُولُ نَبْتَلِيكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ .
قال الخازن : وَنَبْلُوكُمْ أي نختبركم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ أي بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر، وقيل مما تحبون وما تكرهون فِتْنَةً أي ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون .
والابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر.
قال تعالى (وبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).
وقال سليمان لما رأى عرش بلقيس حاضراً عنده (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ).
قال البيضاوي : وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة والابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.
قال الشنقيطي : وما ذكره جل وعلا : من أنه يبتلي خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع .
كقوله تعالى (وَبَلَوناهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواّ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين) .

وقوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) .

وقال تعالى (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

فتنة السراء أخطر من فتنة الضراء.

قال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

ويدل لذلك ما ورد أن أكثر ما يدخل الجنة المساكين.

ولهذا أكثر من يدخل الجنة المساكين لأن فتنة الفقر أهون.

(**وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**) للحساب والجزاء ، فنجازيكم بأعمالكم .

الفوائد :

١. إثبات الموت لكل مخلوق حي.
٢. أن النبي ﷺ كغيره من البشر يموت كما يموتوت .
٣. وجوب الاستعداد للموت قبل وقوعه.
٤. أن الله خلق الناس للابتلاء والاختبار .
٥. معرفة حقيقة الدنيا وأنها للابتلاء والاختبار .
٦. أن الدنيا ليست دار قرار .
٧. أن الابتلاء يكون بالخير والشر .
٨. الاستعاذة من شر فتنة الغنى ومن فتنة الفقر .

(وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦))
[الأنبياء : ٣٦] .

==========

(**وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ

(**إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا**) أَيْ : يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَنْتَقِصُونَكَ .

(**أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ**) يَعْنُونَ أَهَذَا الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ .

قال الرازي : الذكر يكون بخير وبخلافه ، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل سمعت فلاناً يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدواً فهو ذم ، ومنه قوله تعالى (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم) والمعنى أنه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها.

قال الخازن : والذكر يطلق على المدح والذم مع القرينة .

(**وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ**) أَيْ : وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللَّهِ وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ .
كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونكَ إِلَّا هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) .

قيل : أي أنَّهم كافِرونَ باللَّهِ وما يجبُ أن يُذكَرَ به مِن الوحدانيَّةِ.

وقيل : المعنى: الذِّكرُ الذي يستَحِقُّه الرحمنُ مِن المدحِ والثناءِ مما هو أهلٌ له.

واختاره : ابنُ جرير، وابنُ تيميّة .

الفوائد :

١. أن الكفار دائماً يستهزؤون بالأنبياء .
٢. سنة الله الدائمة في ابتلاء الأنبياء والدعاة .
٣. ذم آلهة الكفار .
٤. تسلية لكل داعية إلى الله .

(**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)**) .
[الأنبياء : ٣٧] .

===========

(**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**) أي: طُبع الإنسانُ ورُكّب على العَجَلةِ .

كما قال تعالى (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) .

قال ابن الجوزي : والعجلة تقديم الشيء قبل وقته ، والسرعة تقديمه في أول أوقاته.

قال البيضاوي : (خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ) كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك: خلق زيد من الكرم، جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ولذلك قيل: إنه على القلب ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد.

قال الشوكاني : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) أي: جُعِل لِفَرطِ استِعجالِه كأنَّه مخلوقٌ مِن العَجَلِ. قال الفرَّاءُ: كأنَّه يقولُ: بِنْيتُه وخِلقتُه من العَجَلةِ وعلى العَجَلةِ. وقال الزجَّاجُ: خوطِبَت العرَبُ بما تَعقِلُ، والعرَبُ تقولُ للذي يَكثُرُ منه الشَّيءُ: خُلِقْتَ منه! كما تقولُ: أنتَ مِن لَعِبٍ، وخُلِقْتَ مِن لَعِبٍ؛ تريدُ المبالغةَ في وَصفِه بذلك، ويدُلُّ على هذا المعنى قَولُه تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً) .

(**سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ**) أي : نقمي وحكمي ، واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون.

قال أبو حيان : والآيات هنا :

قيل : الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أي يأتيكم في وقته.

وقيل : أدلة التوحيد وصدق الرسول.

وقيل : آثار القرون الماضية بالشام واليمن ، والقول الأول أليق أي سيأتي ما يسوؤكم إذا دمتم على كفركم ، كأنه يريد يوم بدر وغيره في الدنيا وفي الآخرة.

قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك. فقال الله تعالى: (خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ) لأنَّه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل،

وينظر ثم لا يؤخر. ولهذا قال : (سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي) أي نقمي وحكمي ، واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون. انتهى منه.

من الأمثلة على العجلة المذمومة:

الاستعجال بالدعاء على الأهل والمال والولد عند الغضب .

قال تعالى: (وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً).

ومعناها : وَكَأَنْ يَدْعُوَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ بِالْهَلَاكِ عِنْدَ الضَّجَرِ مِنْ أَمْرٍ، فَيَقُولُ اللَّهُمَّ أَهْلِكْنِي، أَوْ أَهْلِكْ وَلَدِي، فَيَدْعُو بِالشَّرِّ دُعَاءً لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ، وَقَوْلُهُ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ أَيْ يَدْعُو بِالشَّرِّ كَمَا يَدْعُو بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ عِنْدَ الضَّجَرِ: اللَّهُمَّ أَهْلِكْ وَلَدِي، كَمَا يَقُولُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الضَّجَرِ: اللَّهُمَّ عَافِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الدُّعَاءِ.

وَلَوِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِالشَّرِّ لَهَلَكَ.

عن جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لا تُوَافِقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبُ لَكُم).

ولعل كثيرًا مما نرى من المصائب والأمراض وفساد الأولاد يكون بسبب الدعاء عليهم، وكثير من الناس لا يشعر بذلك، فهل من مدكر؟!

ومنها: استعجال المرء إجابة دعائه.

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال (يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي).

ومنها استعجال بعض المصلين في صلاتهم، فلا يُتِمّونَ رُكُوعَهَا ولا سُجُودَهَا ولا يَطْمَئِنّونَ فيها:

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أَنَّ رجُلاً صلَّى عند النبي ﷺ فقال له النبيُّ ﷺ (ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ) – ثلاث مرات – في كل مرة يقول له ذلك.

ومنها أن يستبطئ الإنسان الرزق فيستعجل، فيطلبه من طرق محرمة ووجوه غير مشروعة:

فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال ﷺ (إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي روعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِه).

الفوائد :

١. ذم العجلة .

٢. أن طبيعة الإنسان العجلة .

٣. فضل التأني والتثبت .

٤. تهديد هؤلاء الكفار على استعجالهم العذاب .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)) .

[الأنبياء : ٣٨] .

==========

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِبْعَادًا، فَقَالَ وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له.

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ).

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**) أي: لو يتيقَّنُ الكُفَّارُ المستَعجِلونَ العَذابَ ماذا لهم من البَلاءِ حين تَلفحُ وجوهَهم النَّارُ، فلا يَستَطيعونَ في ذلك الوَقتِ أن يَكُفُّوا بأنفُسِهم النَّارَ عن وُجوهِهم ولا عن ظُهورِهم، ولا يَجِدونَ لهم ناصِرًا ينصُرُهم، ويُنجِيهم مِن عَذابِ اللهِ؛ لَما استعجَلوا العذابَ، ولَتابوا وآمَنوا بالله .

جواب " لَوْ " في هذه الآية محذوف ، لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب .

والمعنى : لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام. فلا يقدرون على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم .

كما قال تعالى (لهمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاش) .

وقال سُبحانَه (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّار) .

وقال عزَّ وجَل (إنا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) .

وقال تبارك وتعالى (لهمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَل) .

(**بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً**) أي : تأتيهم النار بغتة ، أي : فجأة .

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: بَلْ تَأْتِيهِمْ أي: النارُ: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

قال أبو حيان : والظاهر أن الضمير في (تأتيهم) عائد على النار :

وقيل: المرادُ: الساعةُ.

واختاره : السمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية.

(**فَتَبْهَتُهُمْ**) أي : فتصيبُهم بالذُّعْرِ والخوفِ والحيرةِ فلا يَدرونَ ما يصنعونَ .

(**فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا**) أي: فلا يَستطيعونَ دَفْعَ النَّارِ عن أنفُسِهم حين تبغَتُهم .

(**وَلا هُمْ يُنظَرُونَ**) أي : ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ عنهم العَذابُ لِيَتوبُوا .

قال البيضاوي : وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

الفوائد :

١. أن الكفار دائماً يستعجلون العذاب .

٢. أن عذاب الله آتٍ لكن يؤخره لحكمة .

٣. أن عذاب الله لا يرده راد ولا يمنعه مانع .

٤. سيعلم الكفار متى العذاب إذا عاينوه ورأوه بأعينهم .

٥. بيان بعض أنواع عذاب الكفار بالنار .

٦. أن الكفار يوم الكفار لا ينظرون ولا يمهلون .

٧. أن الله قد أنظرهم بالدنيا وأمهلهم وأرسل لهم الرسل والحجج والبراهين .

(**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (٤١)**) .

[الأنبياء : ٤١] .

===========

(**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ**) (اللام) موطئة للقسم ، وقد للتحقيق ، والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذي بعثوا إليهم قبلك.

(**فحاقَ**) أي: نزل وأحاط.

وحاق لَا تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ الْمَادَّةُ إِلَّا فِي إِحَاطَةِ الْمَكْرُوهِ خَاصَّةً . فَلَا تَقُولُ : حَاقَ بِهِ الْخَيْرُ بِمَعْنَى أَحَاطَ بِهِ .

وَالْأَظْهَرُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ : وَحَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ .

(**بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ**) أي: بهؤلاء المستهزئين بالرسلة.

(**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) أي: عاقبة استهزائهم.

في هذه الآية:

أولاً : تسلية للنبي ﷺ لأن الإنسان يتسلى بما وقع لغيره.

قال أبو حيان (وَلَقَدِ استهزاء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ) هذه تسلية لرسول الله ﷺ على ما كان يلقى من قومه وتأسّ بمن سبق من الرسل وهو نظير (وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك) لأن ما كان مشتركاً من ما لا يليق أهون على النفس مما يكون فيه الانفراد ، وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى ، وقالت الخنساء:

ولـولا كثرة البـاكـين حـولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

قال القرطبي : هذا تسلية للنبي ﷺ وتعزية له، يقول: إن استهزأ بك هؤلاء، فقد استهزئ برسل من قبلك، فاصبر كما صبروا.

قال تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .

وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ).

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ).

وقال تعالى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ...).

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ).

وفي الحديث قال ﷺ (يأتي النبي ﷺ ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ﷺ وليس معه أحد).

ثانياً: عناية الله تعالى بنبيه ﷺ حيث ينزل عليه من القرآن ما يسليه.

ثالثاً: تهديد ووعيد شديد للمكذبين المستهزئين.

رابعاً: وعد للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنصر والعاقبة في الدنيا والآخرة.

وقد وقع الاستهزاء والسخرية بالأنبياء قبله ﷺ .

فمن استهزائهم بنوح قولهم له: بعد أن كنت نجاراً صرت نبياً.

وقال تعالى عن نوح (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

ومن استهزائهم بهود ما ذكره الله عنهم بقولهم (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

ومن استهزائهم بصالح قولهم فيما ذكر الله عنهم (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقولهم (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا).

ومن استهزائهم بلوط قولهم فيما حكى الله عنهم (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).

الفوائد:

١. تسلية النبي ﷺ حيث يذكره الله بقصص الأنبياء قبله حيث كذبوا وسخر منهم.
٢. تسلية لكل داعية إلى الله ، أن لا يبالي بما يقوله الأعداء من سخرية واستهزاء.
٣. سنة الله في ابتلاء الأنبياء وأتباعهم.
٤. الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد ﷺ .
٥. تهديد المكذبين للرسول ﷺ .
٦. أن الاستهزاء والسخرية بالرسل موجب للعقاب.

(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢)) .
[الأنبياء : ٤٢] .

==========

يقول تعالى – ذاكرا عجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته، شملت البر والفاجر، في ليلهم ونهارهم — فقال :

(**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**) أمر اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعْرِضِينَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ (مَنْ يَكْلَؤُكُمْ) أَيْ : مَنْ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُكُمْ وَيَحْرُسُكُمْ بِاللَّيْلِ فِي حَالِ نَوْمِكُمْ وَالنَّهَارِ فِي حَالِ تَصَرُّفِكُمْ فِي أُمُورِكُمْ . وَالْكِلَاءَةُ بِالْكَسْرِ : الْحِفْظُ وَالْحِرَاسَةُ . يُقَالُ : اذْهَبْ فِي كِلَاءَةِ اللَّهِ . أَيْ : فِي حِفْظِهِ .

قال البقاعي : (باللّيل) أي وأنتم نائمون ، (والنهار) أي وأنتم مستيقظون.

قال السعدي : (بِاللَّيْلِ) إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم (وَالنَّهَارِ) وقت انتشاركم وغفلتكم .

قال الرازي : إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرفتم في معايشكم.

وقال أبو السعود : وتقديمُ الليل لما أن الدواهيَ أكثرُ فيه وقوعاً وأشدُّ وقعاً .

وقال ابن عاشور : وَذِكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِاسْتِيعَابِ الْأَزْمِنَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ يَكْلَؤُكُمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

وَقُدِّمَ اللَّيْلُ لِأَنَّهُ زَمَنُ الْمَخَاوِفِ لِأَنَّ الظَّلَامَ يُعِينُ أَسْبَابَ الضُّرِّ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مُبْتَغَاهَا مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ وَعِلَلِ الْأَجْسَامِ.

وَذِكْرُ النَّهَارِ بَعْدَهُ لِلِاسْتِيعَابِ.

(من الرحمن) قولان للعلماء :

قيل : بدل الرحمن أي غيره .

واقتصر عليه ابن كثير .

قال السعدي (مِنَ الرَّحْمَنِ) أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ) أي : بدلها .

وقيل : (من الرحمن) أيْ : مِنْ عَذَابِهِ وَبَأْسِهِ .

وَنَظِيرُهُ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) أَيْ : مَنْ يَنْصُرُنِي مِنْهُ فَيَدْفَعُ عَنِّي عَذَابَهُ .

واختاره : ابن جرير ، والسمعاني ، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي.

قال ابن جرير : يقولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْعَذَابِ ، الْقَائِلِينَ : مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (مَنْ يَكْلَؤُكُمْ) أَيُّهَا الْقَوْمُ ، يَقُولُ : مَنْ يَحْفَظُكُمْ ، وَيَحْرُسُكُمْ بِاللَّيْلِ إِذَا نِمْتُمْ ، وَبِالنَّهَارِ إِذَا انصَرَّفْتُمْ (مِنَ الرَّحْمَنِ) يَقُولُ : مِنْ أَمْرِ الرَّحْمَنِ إِنْ نَزَلَ بِكُمْ ، وَمِنْ عَذَابِهِ إِنْ حَلَّ بِكُمْ.

وقال القرطبي : (مِنَ الرحمن) أي من عذابه وبأسه ؛ كقوله تعالى (فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ الله) أي من عذاب الله.

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى (قل من يكلؤكم) المعنى : قل لهؤلاء المستعجِلين بالعذاب : من يحفظكم من بأس الرحمن إن أراد إنزاله بكم؟! وهذا استفهام إنكار ، أي : لا أحد يفعل ذلك .

وقال ابن عاشور : (من الرحمن) من بأسه وعذابه .

وقال الشنقيطي : (مِنْ) فِي قَوْلِهِ (مِنَ الرَّحْمَنِ) فِيهَا لِلْعُلَمَاءِ وَجْهَانِ مَعْرُوفَانِ :

أَحَدُهُمَا وَعَلَيْهِ اقْتَصَرَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَنَّ «مِنْ» هِيَ الَّتِي بِمَعْنَى بَدَلَ . وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ مِنَ الرَّحْمَنِ أَيْ : بَدَلَ الرَّحْمَنِ ، يَعْنِي غَيْرَهُ .

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ) أَيْ : بَدَلَهَا .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْمَعْنَى مَنْ يَكْلَؤُكُمْ أَيْ : يَحْفَظُكُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ أَيْ : مِنْ عَذَابِهِ وَبَأْسِهِ . وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ عِنْدِي . وَنَظِيرُهُ مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) أَيْ : مَنْ يَنْصُرُنِي مِنْهُ فَيَدْفَعُ عَنِّي عَذَابَهُ .

(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) أي : بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ، فلهذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووفقوا في أمرهم.

قال ابن جرير: بل هم عن ذكرِ مواعظِ ربِّهم، وحُججِه التي احتجَّ بها عليهم معرضونَ، لا يتدبَّرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به؛ جهلًا منهم وسفهًا .

وقال الرازي : فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلاً ونهاراً بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذي هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون في شيء منها ليعرفوا أنه لا كالئ لهم سواه ويتركون عبادة الأصنام التي لا حظ لها في حفظهم ولا في الإنعام عليهم.

الفوائد :

١. لا حافظ إلا الله .

٢. لا ينجو أحد من عذاب الله إذا أشرك وكذب .
٣. الذي يستحق العبادة هو الذي بيده الخير .
٤. ذم الإعراض عن آيات الله وحججه ومواعظه .
٥. فضل التفكر في آيات الله ومواعظه .

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)) .

[الأنبياء : ٤٣- ٤٤] .

==============

(**أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا**) اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ، أَيْ أَلَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلَؤُهُمْ غَيْرُنَا؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا، وَلَا كَمَا زَعَمُوا .

(**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ**) أي: لا تَقدِرُ آلهتُهم المزعومةُ أن تَنصُرَ أنفُسَها لِضَعفِها، فكيف تنصُرُ عابديها، وتمنَعُهم مِن عذابِنا

قال ابن كثير : أي أن هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي اسْتَنَدُوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ.

وقال الرازي : أي فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات ، وحماية النفس أولى من حماية الغير ، فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها .

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا لَا تَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَنْفُسِهَا ، فَكَيْفَ تَنْفَعُ غَيْرَهَا – جَاءَ مُبَيَّنًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْآلِهَةَ الْمَعْبُودَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَ فِيهَا نَفْعٌ أَلْبَتَّةَ .   (أضواء البيان) .

(**وَلَا هُمْ مِنَّا**) **قال ابن الجوزي**: (وَلَا هُمْ) في المشارِ إليهم قولان:

أحدُهما: أنَّهم الكفار .

وهو قولُ ابنِ عبَّاس.

واختاره : وابنُ جريرٍ، والواحدي، وابن جزي.

والثاني: أنَّهم الأصنامُ .
قاله قتادةُ .
واختاره : أبو حيانَ، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي .
(**يُصْحَبُونَ**) أي : يجارون ، أي: وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا .
قال ابن عطية : (ولا هم يصحبون) يحتمل تأويلين أحدهما يجارون ويمنعون ، والآخر (ولا هم منا يصحبون) بخير ولا تزكية ونحو هذا .
قال ابن الجوزي : وفي معنى (يُصْحَبُونَ) أربعة أقوال.
أحدها : يُجارُون ، رواه العوفي عن ابن عباس.
قال ابن قتيبة : والمعنى : لا يجيرهم منَّا أحدٌ ، لأن المجير صاحب لجاره.
والثاني : يُمنعون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
والثالث : يُنصرون ، قاله مجاهد.
والرابع : لا يُصحبون بخير ، قاله قتادة.
(**بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**) يقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ أَنَّهُمْ مُتِّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُعِّمُوا وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ .
قال السعدي : أي أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها، عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعظم طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو لفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكا ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك .
كما قال تعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِين) .
وقال سُبحانَه (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) .
قال البقاعي : (حتى طال عليهم العمر) فكان طول سلامتهم غاراً لهم بنا ، فظنوا أنه لا يغلبهم على ذلك التمتيع شيء ، ولا ينزع عنهم ثوب النعمة.
أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، وَقَدْ أَسْلَفْنَاهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .
وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ ظُهُورَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ .
وَالْمَعْنَى أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ وَالْقُرَى الظَّالِمَةَ وَإِنْجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . (ابن كثير)
قال الرازي : فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها في ملك محمد ﷺ ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا وننقص من الشرك بإهلاك أهله أما كان لهم في ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من الله وإرادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته
وقال السمعاني: (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) الأكثرونَ: أنَّ هذا هو ظهورُ النَّبيّ، وفتحُه ديارَ الشِّركِ أرضًا أرضًا، وبلدةً بَلْدَةً، والدَّليلُ

على صحةِ هذا التأويلِ أنَّه قال: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ أي: ليست الغلبةُ لهم؛ إنَّما الغلبةُ لي ولرسولي .

وقال الشنقيطي: في معنى إتيانِ اللهِ الأرضَ يَنقُصُها مِن أطرافِها في هذه الآيةِ الكريمةِ أقوالٌ معروفةٌ للعُلَماءِ، وبعضُها تدُلُّ له قرينةٌ قرآنيَّةٌ، وأمَّا القولُ الذي دَلَّت عليه القرينةُ القُرآنيَّةُ فهو أنَّ معنى نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أي: ننقُصُ أرضَ الكُفرِ ودارَ الحَربِ، ونحذِفُ أطرافَها بتسليطِ المسلِمينَ عليها، وإظهارِهم على أهلِها، ورَدِّها دارَ إسلامٍ، والقرينةُ الدَّالَّةُ على هذا المعنى هي قَولُه بعده: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ، والاستِفهامُ لإنكارِ غلبَتِهم. وقيل: لِتَقريرِهم بأنَّهم مغلوبون لا غالبون، فقَولُه: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ دليلٌ على أنَّ نَقْصَ الأرضِ مِن أطرافِها سَبَبٌ لغَلَبةِ المسلِمينَ للكُفَّارِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بالمعنى المذكور .

وقال أيضاً : وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى : أَفَلَا يَرَى كُفَّارُ مَكَّةَ وَمَنْ سَارَ سَيْرَهُمْ فِي تَكْذِيبِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِمَا جِئْتَ بِهِ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَيْ : بِإِهْلَاكِ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ كَمَا أَهْلَكْنَا قَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ ، وَهُمْ يَمُرُّونَ بِدِيَارِهِمْ . وَكَمَا أَهْلَكْنَا قَوْمَ هُودٍ ، وَجَعَلْنَا سَبَأً أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَالْكُفْرِ بِمَا جَاءُوا بِهِ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى) كَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَسَبَأٍ ، فَاحْذَرُوا مِنْ تَكْذِيبِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِئَلَّا نُنْزِلَ بِكُمْ مِثْلَ مَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ .

(**أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ**) أي: أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المنتَصِرونَ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه المؤمِنينَ؟! بل المشرِكونَ هم المغلوبونَ الأخسَرونَ الأذَلُّونَ .

الفوائد :

١. ذم الآلهة التي عبدها الكفار بعجزها .
٢. العاجز لا يكون إلهاً .
٣. ذم هؤلاء الكفار حيث أصناماً لا تنصر نفسها فكيف بغيرها .
٤. لا أحد من الكفار يستطيع أن يمنع نفسه من عذاب الله إذا وقع .
٥. خطر الترف وطول الأمل .
٦. من أعظم الآيات الدالة على صدق النبي ﷺ انتصار المسلمين وهلاك المشركين .

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)) .

[الأنبياء : ٤٥ – ٤٦]

=============

(**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ**) أي : قل لهم يا محمد : انما اخوفكم واحذركم بوحى من الله، لا من تلقاء نفسي، فأنا مبلغ عن الله، ما انذرتكم به من العذاب والنكال .

كما قال تعالى (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) .

وقال سُبحانه (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) .

(**وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ**) أي : ولكنكم ايها المشركون ، لشدة جهلكم وعنادكم ، كالصم الذين لا يسمعون الكلام والانذار ، فلا يتعظون ولا ينزجرون .

كما قال تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

وقال سُبحانَه (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) .

قال ابن الجوزي : شبَّه الكفار بالصُّمّ الذين لا يسمعون نداء مناديهم ؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا ، كالصُّمّ لا يفيدهم صوت مناديهم .

(**وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ**) أي : ولئن اصابهم شيء خفيف ، مما انذروا به من عذاب الله ، ولو كان يسيرا

(**لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**) أي : ليعترفن بجريمتهم ويقولون : يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا ، بتكذيبنا رسل الله .

قال ابن كثير : أَيْ وَلَئِنْ مَسَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لَيَعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا ظالمين لأنفسهم فِي الدُّنْيَا.

ذهب ابنُ عطيةَ وأبو حيان إلى أنَّ هذه النفحةَ مِن العذابِ في الدنيا.

واستظهر الألوسي أنَّ هذا المسَّ يكونُ يومَ القيامة.

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ هذه النفحةَ مِن العذاب هي أولُ العذابِ في الآخرةِ.

قال ابن عاشور : وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ أَنْذِرْهُمْ بِأَنَّهُم سيندمون عِنْد مَا يَنَالُهُمْ أَوَّلُ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ. وَهَذَا انْتِقَالٌ مِنْ إِنْذَارِهِمْ بِعَذَابِ الدُّنْيَا إِلَى إِنْذَارِهِمْ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ.

الفوائد :

١. أن النبي ﷺ يؤمر وينهى .

٢. أن الله أمر نبيه ﷺ أن يقول للكفار إنما أنا مبلغ عن الله .

٣. أن الهداية والتوفيق بيد الله .

٤. أن الذي لا يستفيد من المواعظ فكأنه أصم .

٥. أن هؤلاء الكفار إذا جاءهم العذاب من الله رجعوا وندموا حين لا ينفع الدم .

٦. أن الشرك أعظم الظلم .

٧. أن الاعتراف والتوبة بعد حلول العذاب لا ينفع قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).

قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)) .

[الأنبياء : ٤٧] .

==========

(**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**) أي : ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة .

قوله تعالى (يوم القيامة) سميت بذلك:

لقيام الناس من قبورهم ، كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

ولقيام العدل فيه ، كما قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).
ولقيام الأشهاد ، كما قال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة ، والرسول ﷺ يكون شهيداً على هذه الأمة.

(**فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**) أي: فلا يَظلِمُ اللهُ نفْسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها .

قال البغوي : (فلا تُظلَمُ نفسٌ شَيئًا) أي: لا يُنقَصُ من ثَوابِ حَسَناتِها، ولا يُزادُ على سَيِّآتِها، وفي الأخبارِ: إنَّ الميزانَ له لسانٌ وكِفَّتانِ .

كما قال تعالى (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

قال أبو حيان (ولا يظلم ربك أحداً) فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه الذي يستحقه أو يعذبه بغير جرم.

وقال الشنقيطي: أي فلا ينقص من حسنات محسن، ولا يزيد من سيئات مسيء، ولا يعاقب على غير ذنب.

(**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا**) أي: وإن كان الَّذي للعبدِ مِن عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئْنا بها لِتُوزنَ في الميزانِ .

كما قال تعالى (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

وقال سُبحانَه (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

(**وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**) أي: وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكِتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، مُوصِلينَ للعامِلينَ جَزاءَها، ولن نَظلِمَهم شيئًا؛ فليس في الحِسابِ أحدٌ مِثلُنا .

كما قال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) .

قال ابنُ عاشور : التقدير: وكفى النَّاسَ نحنُ في حالِ حِسابِهم. ومعنى: كفاهم نحن حاسِبينَ: أنَّهم لا يتطَلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعدِلُ مِثلَنا. وهذا تأمينٌ للنَّاسِ مِن أن يُجازَى أحَدٌ منهم بما لا يَستَحِقُّه، وفي ذلك تحذيرٌ مِن العذابِ، وترغيبٌ في الثوابِ .

فائدة : ١

في الآية تنزيه الله عن الظلم لكمال عدله

فلا ينقص من ثوابهم شيئاً، ولا يزاد في عذابهم، ولا يعاقبون بجريرة غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) .

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

وقال تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

فائدة : ٢

في الآية إثبات الميزان.

وهو ميزان حقيقي له كفتان.

والميزان لا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إلاَّ اللهُ، وهو من أعظمِ المواطنِ الْمَهُولَةِ يومَ القيامةِ .

قال ابنُ مسعودٍ ﷺ : (للناسِ عندَ الميزانِ تجَادُلٌ وزِحامٌ) رواه البيهقيُّ في البعث والنشورِ بسندٍ حَسَنٍ.

قالَ أبو إسحاقَ الزَّجَّاجُ: أجْمَعَ أهْلُ السُّنَّةِ على الإيمانِ بالْمِيزانِ، وأنَّ أعْمَالَ العِبَادِ تُوزَنُ يومَ القيامَةِ، وأنَّ الْمِيزَانَ لهُ لِسَانٌ وكِفَّتَانِ ويَمِيلُ بالأعمالِ .

وقالَ ابنُ بطَّة في وُجوب الإيمان بالميزان: وقدِ اتَّفَقَ أهلُ العِلْمِ بالأخبارِ والعُلَماءُ والزُّهَّادُ والعُبَّادُ في جميعِ الأمْصَارِ أنَّ الإيمانَ بذلكَ واجِبٌ لازِمٌ .

وجُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الميزانَ له كِفَّتانِ حِسِّيَّتانِ مُشاهَدَتانِ .

قال البَغَويُّ : إنَّ اللهَ تعالى يَنصِبُ ميزانًا له لِسانٌ وكِفَّتانِ .

وقال ابنُ قُدامةَ: الميزانُ له كِفَّتانِ ولِسانٌ، تُوزَنُ به الأعمالُ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ .

وقال البَرْبَهاريُّ : والإيمانُ بالميزانِ يَومَ القيامةِ، يُوزنُ فيه الخَيرُ والشَّرُّ، له كِفَّتانِ ولِسانٌ .

وقال القُرطُبيُّ في تَفسيرِ سورةِ القارِعةِ: قد تَقَدَّمَ القَولُ في الميزانِ في "الأعرافِ والكَهفِ والأنبياءِ"، وأنَّ له كِفَّةً ولِسانًا تُوزَنُ فيه الصُّحُفُ المكتوبُ فيها الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ .

وقال ابنُ أبي العِزِّ : الذي دَلَّت عليه السُّنَّةُ: أنَّ ميزانَ الأعمالِ له كِفَّتانِ حَسِّيَّتانِ مُشاهَدَتانِ .

وقال السَّفارينيُّ : دَلَّتِ الآثارُ على أنَّه ميزانٌ حَقيقيٌّ ذو كِفَّتينِ ولِسانٍ، كما قال ابنُ عَباسٍ، والحَسَنُ البَصريُّ، وصَرحَ بذلك عُلماؤُنا، والأشعَريَّةُ وغَيرُهم، وقد بَلَغَت أحاديثُه مَبلَغَ التَّواتُرِ، وانعَقَدَ إجماعُ أهلِ الحَقِّ من المسلِمينَ عليه .

فائدة : ٣

أدلة ثبوته.

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقال تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

ولقوله ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان ..) رواه مسلم.

ولقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن ... سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه.

فائدة : ٤

اختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال:

القول الأول: أن الذي يوزن الأعمال نفسها.

وإلى هذا ذهب ابن حزم، والطيبي، وابن حجر.

قال ابن حجر: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن.

للحديث السابق (والحمد لله تملأ الميزان).

ولحديث (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده ...).

قالوا: هذان الحديثان صريحان في وزن الأعمال أنفسها.

ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

القول الثاني: أن الذي يوزن العامل (أي: صاحب العمل).
لحديث أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة). متفق عليه
ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد.
القول الثالث: أن الذي يوزن صحائف الأعمال.
وإلى هذا ذهب ابن عبد البر، والقرطبي.
لحديث البطاقة وفيه (... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي.
القول الرابع: أن الجميع يوزن.
وإلى هذا ذهب ابن كثير، وابن أبي العز، وحافظ حكمي، وابن باز وغيرهم.
قال ابن كثير: وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.
وقال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك: فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال.
وقال حافظ حكمي: الذي استظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها.
وقال الشيخ ابن باز: الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة.
وهذا القول هو الراجح.
فائدة : ٥
كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض، لأن الوزن يكون للأجسام؟
أجاب بعضهم: بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجساماً ثم توزن.
قال ابن كثير: قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضاً قد قام بالفاعل، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتاً يوضع في الميزان.
وقال ابن أبي العز: فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً.
فائدة : ٦
هل هو ميزان واحد أم متعدد؟
وردت نصوص تدل على أنه متعدد، كقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)، وقوله تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...).
ووردت نصوص بالإفراد، كقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان).
والراجح أنه ميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون.
قال ابن كثير : الأكثر أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه .
ورجّح ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى بعد حكايته الخلاف أن الميزان واحد، وقال: والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا

يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا .

وقال السَّفارينيُّ : الأصَحُّ الأشهَرُ أنَّه ميزانٌ واحِدٌ لجميعِ الأمَمِ ولجميعِ الأعمالِ .

فائدة : ٧

الكفار توزن أعمالهم .

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين)، لكن كيف توزن أعمال الكفار وليس لهم حسنات؟

يجيب عن هذا القرطبي حيث قال: والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته، ولا يجد الكفار حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة.

والثاني: أن حسنات الكافر من صلة رحم، وصدقة، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه.

والراجح: هو القول الأول؛ لأن الشرك والكفر يحبط العمل؛ لقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين).

وقال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً).

وقال تعالى (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ).

وقال تعالى (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون).

ومما يدل على ذلك أيضاً ما أخرجه الإمام مسلم وأحمد من حديث عائشة. قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين".

فائدة : ٨

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديره ليكون الجزاء بحسبها.

فائدة : ٩

فإن قيل: ما الحكمة في وزن أعمال العباد والله هو العالم بمقدار كلّ شيء قبل خلقه إياه وبعده قلنا أربعة أشياء:

أحدهما: امتحان الله تعالى عباده بالإيمان به في الدنيا .

والثاني: جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى.

والثالث: تعريف الله عزّ وجلّ للعباد ما عند الله من جزاء على خير وشر .

والرابع: إلقائه الحجّة عليه.

ونظيره قوله (هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق) الآية فأخبر ما تأتي الأعمال ونسخها مع علمه بها ما ذكرناه من المعاني والله أعلم.

قال الخازنُ: إن قُلتَ: أليسَ اللهُ عزَّ وجَلَّ يَعلَمُ مَقاديرَ أعمالِ العِبادِ؟ فما الحِكمةُ في وزنِها؟ قُلتُ: فيه حِكَمٌ، منها: إظهارُ العَدْلِ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَظلِمُ عِبادَه. ومنها: امتِحانُ الخَلقِ بالإيمانِ بذلك في الدُّنيا، وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم في العُقبى. ومنها:

تَعريفُ العِبادِ ما لهم من خَيرٍ وشَرٍّ وحَسنةٍ وسيِّئةٍ. ومنها: إظهارُ عَلامةِ السَّعادةِ والشَّقاوةِ....

وقال ابن أبي العِزّ : ولَوْ لَمْ يكُنْ مِنَ الحِكْمَةِ في وَزْنِ الأعْمَالِ إلاَّ ظُهُورُ عَدْلِهِ سُبحانهُ لجميعِ عِبَادِهِ، فلا أحَدَ أحَبُّ إليهِ العُذْرُ مِنَ الله .

فائدة : ١٠

أعمال تثقل في الميزان:

من المهم أن نعلم أن كل عمل صالح يعمله العبد هو مما يثقل الله به موازين حسناته يوم القيامة.

قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا).

وقال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

غير أن النصوص قد وردت بأعمال معينة، لها خصوصية بتثقيل موازين صاحبها يوم القيامة؛ فمن ذلك:

أولاً: التهليل ويقصد به " لا إله إلا الله " وهي أثقل شيء في الميزان:

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَقَالَ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ). رواه احمد والترمذي

ثانياً : حمد الله .

قال ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان) .

قال ابن رجب رحمه الله تعالى : وسبب ذلك: أن التحميد إثبات المحامد كلها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها .

ثالثاً: ذكر الله تعالى: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) متفق عليه.

عَنْ جُوَيْرِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا قَالَتْ نَعَمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ) رواه مسلم.

رابعاً: المحافظة على الأذكار دبر الصلاة المفروضة:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (خَصْلَتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا وَيُكَبِّرُ عَشْرًا فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ ..) رواه أحمد وأبو داود.

خامساً: الصبر والاحتساب على فقدان الولد الصالح.

عَنْ زَيْدٍ عَنْ أَبِي سَلَّامٍ عَنْ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ وَقَالَ بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحِسَابِ) رواه الإمام أحمد.

سادساً: مكارم الأخلاق.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ) رواه أبو داود.

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ (يَقُولُ مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ) رواه الترمذي.

سابعاً: إتباع الجنازة حتى يفرغ من دفنها.

عَنْ أُبَيٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِهِ مِنْ أُحُدٍ) رواه الإمام أحمد.

فائدة : ١١

قال الشيخ ابن عثيمين : الناس إذا كان يوم القيامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام :

قسم ترجح حسناتهم على سيئاتهم، فهؤلاء لا يعذبون ويدخلون الجنة، وقسم آخر ترجح سيئاتهم على حسناتهم، فهؤلاء مستحقون للعذاب بقدر سيئاتهم ثم ينجون إلى الجنة، وقسم ثالث سيئاتهم وحسناتهم سواء، فهؤلاء هم أهل الأعراف ليسوا من أهل الجنة، ولا من أهل النار، بل هم في مكان برزخ عالٍ مرتفع يرون النار ويرون الجنة، يبقون فيه ما شاء الله وفي النهاية يدخلون الجنة، وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى أن أعطى كل إنسان ما يستحق، فمن ترجّحت حسناته فهو من أهل الجنة، ومن ترجحت سيئاته عذّب في النار إلى ما شاء الله، ومن كانت حسناته وسيئاته متساوية فهو من أهل الأعراف، لكنها –أي الأعراف– ليست مستقراً دائماً، وإنما المستقر: إما إلى الجنة، وإما إلى النار، جعلني الله وإياكم من أهل الجنة " انتهى من "لقاء الباب المفتوح"

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)) .

[الأنبياء : ٤٨-٥٠] .

============

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ**) أي: ولقد آتينا موسى وهارونَ ما يُفرقُ به بينَ الحَقّ والباطِلِ .

والمراد بالفرقان :

قيل : التوراة .

وقيل :البرهانُ الذي فَرَق به بينَ حقّ موسى وباطِلِ فرعونَ.

والثالث: النَّصرُ والنَّجاةُ لموسى، وإهلاكُ فرعونَ.

قال ابنُ جرير: قال ابنُ زيد في قَولِه تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ) قال: الفرقانُ: الحَقُّ آتاه الله موسى وهارونَ، فَرَق بينهما وبين فِرعَونَ، فقضى بينهم بالحَقِّ. وقرأ (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ) قال: يومَ بدرٍ. وهذا القولُ الذي قاله ابنُ زيد

في ذلك أشبَهُ بظاهرِ التَّنزيلِ .

قال القرطبي : وقال ابن زيد : "الفرقان" هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى (وَمَآ أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان) يعني يوم بدر ، قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لدخول الواو في الضياء ؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهارون النصر والتوراة التي هي الضياء والذكر.

قال ابنُ عاشور: الفُرقانُ: ما يُفرَقُ به بين الحَقِّ والباطِلِ مِن كلامٍ أو فعلٍ ... فيجوزُ أن يرادَ بالفُرقانِ: التَّوراةُ ... ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرقانِ المعجِزاتُ الفارِقةُ بين المعجِزةِ والسِّحرِ ... ويجوزُ أن يرادَ به الشَّريعةُ الفارِقةُ بين العَدلِ والجَورِ ... وعلى الاحتمالاتِ المذكورةِ تجيءُ احتمالاتٌ في قَولِه تعالى الآتي: وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ وليس يلزَمُ أن تكونَ بَعضُ هذه الصفاتِ قَسيمًا لبعضٍ، بل هي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ؛ فمجموعُ ما أوتيَه موسى وهارونُ تتحَقَّقُ فيه هذه الصِّفاتُ الثَّلاثُ .

(**وَضِيَاء**) أي: وآتينا موسى وهارونَ التَّوراةَ نورًا في القَلبِ، مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها أحكامَ دينِهم .

قال السمعاني: وقَولُه (وَضِيَاءً) هو صفةٌ أُخرَى للتوراةِ، إذا حمَلْنا الفرقانَ على التَّوراةِ، وإنْ حمَلْناه على البُرهانِ، فمعناه: أعطَيناه البرهانَ، وأعطيناه التَّوراةَ الَّتي هي ضِياءٌ .

(**وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ**) وهي تذكيرٌ ومَوعِظةٌ للمُتَّقينَ الذين يمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتَنِبونَ نواهيَه .

قال البقاعي : (للمتقين) أي الذين صار هذا الوصف لهم شعاراً حاملاً لهم على التذكير لما يدعو إليه الكتاب من التوحيد الذي هو أصل المراقبة

قال السَّعدي: (وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ) يتذكَّرونَ به ما ينفَعُهم وما يَضُرُّهم، ويُتَذَكَّرُ به الخَيرُ والشَّرُّ .

قال ابنُ عاشور: لأنَّه يُذَكِّرُهم بما يجهَلونَ، وبما يَذهَلونَ عنه ممَّا عَلِموه، ويجَدِّدُ في نفوسِهم مُراقبةَ رَبِّهم .

وقال البقاعي: (وَذِكْرًا) أي: وَعْظًا وشرفًا .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ)

قال ابن عطية : قوله تعالى : (بالغيب) يحتمل ثلاث تأويلات :

أحدها : في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد وهذا أرجحها .

والثاني :أنهم يخشون الله تعالى على أمره تعالى غائب وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة .

والثالث : أنهم يخشون الله ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم .

قال الرازي : يخشون ربهم في الخلوات إذا غابوا عن الناس .

فضائل خشية الله في الخلوة :

أولاً: لهم مغفرة وأجر كبير.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

(بالغيب) أي: وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس كما جاء في الحديث عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: .. وذكر منهم: ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه. وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ).

ويحتمل (يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) أي: أنهم يخشون ربهم وهم لم يروه كما في الحديث (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

ثانياً: أن الله مدح من يخافه بالغيب.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ).

ثالثاً: هم أهل من ينتفع الإنذار.

قال تعالى (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ).

قال السعدي: أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

رابعاً: من علامات المتقين.

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ).

- قال السعدي (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُون) أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

خامساً: من أسباب النجاة.

قال ﷺ (ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى).

وقال المناوي: إن خشية الله رأس كل خير، والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب.

وقال: وقدّمها الرسول ﷺ على خشية العلن في الحديث، فقدّم عليه الصلاة والسلام الخشية في السِّر؛ لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن؛ لما يخاف من شوب رؤية الناس، وهذه درجة المراقبة، وخشيته فيهما تمنع من ارتكاب كل منهي وتحثه على فعل كل مأمور.

سادساً: أن النبي ﷺ كان يدعو ربه بذلك.

ففي حديث عمار. (أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: ....، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة). رواه أحمد

قال ابن رجب: ... فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس وقد مدح الله من يخافه بالغيب ... ثم ذكر الآيات المتقدمة.

سابعاً: من الذين يظلهم الله في ظله.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله). متفق عليه

ثامناً: وخشية الله في السر والعلانية هي الوصية النبي ﷺ .

فقد قال ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت) أي: في السر والعلانية، حيث يراك الناس وحيث لا يرونك، في الليل والنهار، في الغيب

والشهادة، في كل وقت وعلى كل حال.
تاسعاً: لقد كان النبي ﷺ أشد الناس خشية لله.
فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها).
وقال عبد الله بن مسعود: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا.
قال ابن رجب : ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً.
فأما الأول: فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
قال بعض السلف: أخفوا لله العمل فأخفى لهم الجزاء.
وفي حديث السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه .
وأما الثاني: فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله).
وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.
جاء في (**التفسير الوسيط**) وخصت الساعة بالذكر مع أنها داخلة في الإيمان بالغيب، للعناية بشأنها حيث إنها من أعظم المخلوقات، وللردّ على من أنكرها واستعجل قيامها.
الفوائد :

١. إثبات رسالة موسى وهارون .
٢. الثناء على موسى وهارون .
٣. الكتاب الذي أنزل على موسى التوراة .
٤. أن كتب الله نور وضياء .
٥. فضل التقوى وأهلها حيث هم من يستفيدون من المواعظ والآيات .
٦. من أعظم صفات المتقين خشية الله بالغيب .
٧. إثبات الساعة .
٨. أن المتقين جمعوا بين الإحسان والخوف .

(وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)) .

[الأنبياء : ٥٠] .

==========

وَهَذَا) أي : القرآن .

ذِكْرٌ) كما قال تعالى (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) أي: عظة وذكرى لهم ، ليرشدوا من العمى إلى الهدى للخلق كافة الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد.

ومن أسماء القرآن الذكر ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر).

قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك ، يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

قال السعدي : ... يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً والنهي عن القبيح عقلاً .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وسمي القرآن ذكراً:

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانياً: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ).

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

(**مُّبَارَكٌ**) أي : كثير الخيرات والبركات ، لأن فيه خير الدنيا والآخرة ... ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم .

كما قال تعالى (وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فاتبعوه واتقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

وقال تعالى (وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ) .

وقال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب) .

ومن بركته:

أولاً: في الثواب الحاصل بتلاوته ، فإن من قرأ حرفاً واحداً منه ، فله بكل حرف عشر حسنات.

ثانياً: ما يحصل من الأثر المترتب على تلاوته من انشراح الصدر ، ونور القلب وطمأنينه.

ثالثاً: ما يحصل بهذا القرآن من اجتماع الكلمة ، وحفظ اللغة الأصيلة للقوم الذين نزل بلغتهم ، فمن المعلوم أن الناس إذا كانوا على لغة واحدة صاروا إلى الاجتماع أقرب.

ولهذا بيّن الله أن أعظم نعمة أنزلها على خلقه هو إنزال هذا القرآن كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا).

وبيّن أن إيراثه علامة الاصطفاء ، وبيّن أن ذلك فضل كبير من الله حيث قال (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) فبيّن أن إيراث هذا الكتاب لا يكون إلا لمن اصطفاه الله.

قال الرازي : بركته كثرة منافعه وغزارة علومه .

قال ابن الجوزي : (مباركٌ) أي : كثير الخير .

وقال الشنقيطي : أي كثير البركات والخيرات. لأن فيه خير الدنيا والآخرة.

أَنزلْنَاهُ) أي: مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى" مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَالَ تَعَالَى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ...).

وقال تَعَالَى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ).

وَقَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا).

وَقَالَ تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ).

وقال تعالى (المص، كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ...).

وَقَالَ تَعَالَى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا).

وقال تعالى (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وَقَالَ تَعَالَى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ).

(**أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**) الاستفهام في قوله (أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) للتوبيخ والإنكار، والخطاب للمشركين.

أي : كيف تنكرون كونه من عند الله مع أنكم بمقتضى فصاحتكم تدركون من بلاغته، ما لا يدركه غيركم، ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة على موسى وهارون.

إن إنكاركم لكون القرآن من عند الله، لهو دليل واضح على جحودكم للحق بعد أن تبين لكم.

قال أبو حيان : (أفأنتم له منكرون) استفهام إنكار وتوبيخ وهو خطاب للمشركين ، والضمير في (له) عائد على ذكر وهو القرآن ، وفيه تسلية للرسول ﷺ إذا أنكر ذلك المشركون كما أنكر أسلاف اليهود ما أنزل الله على موسى عليه السلام . أ هـ

الفوائد

١. الثناء على القرآن العظيم.
٢. أن القرآن منزل غير مخلوق.
٣. أن هذا القرآن مبارك ، مبارك في تلاوته ، وفي تدبره ، وفي العمل به.

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا به عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)** [الأنبياء : ٥١-٧٠] .

============

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ**) أي : ألهمه الحق والحجة على قومه .

قال ابن عطية: الرُّشدُ عامٌّ في هدايتِه إلى رَفضِ الأصنامِ، وفي هدايتِه في أمرِ الكوكَبِ والشَّمسِ والقمَرِ، وغيرِ ذلك من النبُوَّةِ فما دونَها، وقال بعضُهم: معناه وُفِّق للخيرِ صَغيرًا. وهذا كُلُّه متقاربٌ .

وقال ابن عاشور : والرشد : الهدى والرأي الحق ، وضده الغي .

وقال السعدي : وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدا من العالمين، غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدا، بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن، له من الرشد، بحسب ما معه من الإيمان.

(**مِن قَبْلُ**) اختلف في معناه :

فقيل: المرادُ: من قبلِ موسى وهارون.

واختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية، والبغوي ، وأبي حيان ، والقاسمي .

قال البقاعي : (من قبل) أي : قبل موسى وهارون عليهما السلام .

وقال القاسمي : (مِنْ قَبْلُ) أي : من قبل موسى وهارون .

وقال السعدي : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ) أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما .

وقيل: المرادُ من قَبلِ النبُوَّةِ.

واختاره القرطبي، ونسَبه إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ.

وقال الشوكاني : وَمَعْنَى (مِنْ قَبْلُ) أَنَّهُ أُعْطِيَ رُشْدَهُ قَبْلَ إِيتَاءِ مُوسَى وَهَارُونَ التَّوْرَاةَ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْمَعْنَى أَعْطَيْنَاهُ هُدَاهُ مِنْ قَبْلِ النُّبُوَّةِ: أَيْ وَفَّقْنَاهُ لِلنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ لَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ فَرَأَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ، وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، وَبِالْأَوَّلِ قَالَ أَقَلُّهُم .

وقيل: معنى مِنْ قَبْلُ: أي: مِن قبلِ البلوغِ، وهو صغيرٌ .

واختاره : البغوي، وابنُ كثير.

قال ابن كثير : (من قبل) أي : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه .

(**وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**) أي : وكان أهلاً لذلك .

قال القرطبي : (وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) أي إنه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوة.

قال ابن عطية : وكنا به عالمين مدح لإبراهيم .

(**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**) هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله .

والتمثال هو الشيء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك، على هيئة مخلوق من مخلوقات الله تعالى كالإنسان والحيوان، يقال: مثلت الشيء بالشيء إذا شبهته به.

فهو عليه السلام سماها باسمها الحقيقي الذي تستحقه، دون أن يجاريهم في تسميتها آلهة.

وقوله: عاكِفُونَ من العكوف بمعنى المداومة والملازمة. يقال: عكف فلان على الشيء إذا لازمه وواظب عليه، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية.

(**قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ**) أي: قال المشركونَ لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَ هذه الأوثانَ؛ فنحن نعبُدُها مِثلَهم .

قال ابن كثير : لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال .

(**قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**) الذين سنّوا لكم هذه السنةَ الباطلة .

(**فِي ضَلالٍ**) عجيبٍ لا يقادَر قدرُه .

(**مُّبِينٍ**) أي : ظاهر بيّن بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونُه كذلك .

أي : في ضلال عجيب لا يقادر قدره، وفي فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها، والباطل لا يصير حقا بفعل الآباء له.

قال السعدي : وأي ضلال، أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟ " أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد.

(**قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**) يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محقاً فيه، فإنا لم نسمع به قبلك .

(**قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ**) أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل جِئتُكم بالحَقِّ لا باللَّعِبِ؛ فرَبُّكم رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي أوجَدَهنَّ وأبدَعَهنَّ وما فيهنَّ مِن جَميعِ المخلوقاتِ .

فمن يخلق ويوجد هو من يستحق العبادة .

قال السعدي : فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله.

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟ (السعدي)

وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز مِنَ العَدَمِ إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدمًا هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقَه.

قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم.

تنبيه :

ذكر بعض العلماء إلى أن الضمير في قوله (فطرهن) عائد إلى التماثيل .

قال الزمخشري : وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم .

ورجحه الرازي ، والنسفي .

وجمع بين القولين ابن جزي فقال : والضمير للسماوات والأرض ، أو للتماثيل ، وهذا أليق بالرد عليهم .

والراجح القول الأول وأن الضمير للسماوات والأرض ، لقاعدة : إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد خلافه .

(**وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**) أي : وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

قال الشوكاني : أي العالمين به المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به مبرهناً عليه مبيناً له.

(**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**) ثُمَّ أَقْسَمَ الْخَلِيلُ قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْضَ قَوْمِهِ لَيَكِيدَنَّ أَصْنَامَهُمْ، أَيْ لَيَحْرِصَنَّ عَلَى أَذَاهُمْ وَتَكْسِيرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، أَيْ إِلَى عِيدِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ . (ابن كثير)

فإبراهيم قال ذلك سراً فسمعه رجل منهم .

ورجحه الطبري ، والقرطبي .

قال الطبري : ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَلَفَ بِهَذِهِ الْيَمِينِ فِي سِرٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَخَفَاءٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ مِنْهُ إِلاَّ الَّذِي أَفْشَاهُ عَلَيْهِ حِينَ قَالُوا (مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لِمَنَ الظَّالِمِينَ) فَـ (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) .

قال البقاعي : والكيد الاحتيال في الضرر .

وقال ابن الجوزي : الكيد احتيال الكائد في ضرّ المكيد.

(**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا**) أي : حطاماً كسرها كلَّها .

ولعل إبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها، وليحملهم على التفكير في أن الذي يجب أن يكون معبودا، إنما هو الله الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء.

(**إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ**) أي : إلا الصنم الكبير عندهم .

قال السعدي : أي إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: " إلى عظيم الفرس " " إلى عظيم الروم " ونحو ذلك، ولم يقل " إلى العظيم " وهنا قال تعالى: {إِلا كَبِيرًا لَهُمْ} ولم يقل " كبيرا من أصنامهم " فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

(**لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ**) قيل : أي إلى إبراهيمَ عليه السلام { يَرْجِعُونَ } فيحاجّهم بما سيأتي فيحجّهم ويبكّتهم .

واختاره : الواحدي ، وابن عطية ، والقرطبي ، والشوكاني .

ونسبه الآلوسي إلى جمهور المفسرين .

قال الشوكاني: أيْ: إلى إبراهيم يَرجِعونَ فيُحاجُّهم بما سيأتي فيَحُجُّهم .

وقيل : يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبودِ أن يُرجَعَ إليه في الملمّات .

قال ابنُ كثير: (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) ذكروا أنَّه وضع القَدُومَ في يدِ كبيرِهم؛ لعَلَّهم يعتَقِدونَ أنَّه هو الذي غار لنفْسِه، وأنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنامُ الصِّغارُ، فكسَّرَها .

وقال ابن جزي : (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) الضمير للصنم الكبير أي يرجعون إليه فيسألونه فلا يجيبهم ، فيظهر لهم أنه لا يقدر على شيء ، وقيل : الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أي يرجعون إليه فيبين لهم الحق .

وقيل : يرجِعون إلى الله تعالى وتوحيدِه عند تحققهم عجزَ آلهتِهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم .

قال الشوكاني : (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ) أَيْ: إِلَى إِبْرَاهِيمَ يَرْجِعُونَ فَيُحَاجُّهُمْ بِمَا سَيَأْتِي فَيَحُجُّهُمْ .

وَقِيلَ: لَعَلَّهُمْ إِلَى الصَّنَمِ الْكَبِيرِ يَرْجِعُونَ فَيَسْأَلُونَهُ عَنِ الْكَاسِرِ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَعْبُودِ أَنْ يُرْجَعَ إِلَيْهِ فِي الْمُهِمَّاتِ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ لَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ خَبَرًا، فَيَعْلَمُونَ حِينَئِذٍ أَنَّهَا لَا تَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ ضَرَرًا، وَلَا تَعْلَمُ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ، وَلَا تُخْبِرُ عَنِ الَّذِي يَنُوبُهَا مِنَ الْأَمْرِ وَقِيلَ: لَعَلَّهُمْ إِلَى اللَّهِ يَرْجِعُونَ، وَهُوَ بَعِيدٌ جِدًّا .

قال ابن عاشور : وهذا العمل الذي عمله إبراهيم عمله بعد أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام والكواكب ورأى جماحهم عن الحجة الواضحة كما ذكر في سورة الأنعام.

(**قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا**) أَيْ : حِينَ رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا فَعَلَهُ الْخَلِيلُ بِأَصْنَامِهِمْ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ الدَّالِّ عَلَى عَدَمِ إِلَهِيَّتِهَا وَعَلَى سَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا : قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا

(**إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ**) أَيْ : فِي صَنِيعِهِ هَذَا .

(**قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**) أي: قالوا : سَمِعْنا شابًّا يذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ يُسَمَّى إبراهيمَ، ومَنْ هذا شأنُه لا بدَّ أن يكونَ هو الذي كَسَّرَها .

قال ابن جرير: قال الذين سمِعوه يقولُ: وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ...

وقال الرازي : وظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد ، فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله في آلهتهم فغلب على قلوبهم أنه الفاعل ولو لم يكن إلا قوله ما هذه التماثيل إلى غير ذلك لكفى.

وقال ابن كثير : (قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ...) أَيْ قَالَ مَنْ سَمِعَهُ يَحْلِفُ أَنَّهُ لَيَكِيدَنَّهُمْ: سَمِعْنَا فَتًى أَيْ شَابًّا، يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.

قال ابن عاشور : وقول قومه (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) يدل على أنهم لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فَعل ذلك، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع توعد إبراهيم إياهم بأن يكيد أصنامهم والذين (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) هم الذين توعد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم ... والفتى : الذكر الذي قوي شبابه.

وقال : وفي قولهم (يقال له إبراهيم) دلالة على أن المنتصبين للبحث في القضية لم يكونوا يعرفون إبراهيم ، أو أن الشهداء أرادوا تحقيره بأنه مجهول لا يعرف وإنما يُدعى أو يسمى إبراهيم ، أي ليس هو من الناس المعروفين.

(**قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ**) أي : بمرأى من الناس.

قال ابن كثير : أي على رؤوس الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَإِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السّلام أن يبين فِي هَذَا الْمَحْفِلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةُ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةُ عَقْلِهِمْ فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ. الَّتِي لَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا، وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا، فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟

وقال البقاعي : وكان هذا عين ما قصده الخليل عليه السلام أن يبين – في هذا المحفل الذي لا يوجد مثله – ما هم عليه من واضح الجهل المتضمن قلة العقل.

(**لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ**) قيل : لعلهم يشهدون عقوبتنا له .

وقيل : المعنى: لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بما نُسِب إليه؛ ليكون ذلك حُجَّةً عليه.

قال ابنُ عطية: (يَشْهَدُونَ) يحتملُ أن يُرادَ به الشهادةُ عليه، يُريدونَ بفعلِه أو بقولِه: لَأَكِيدَنَّ .

ويحتمِلُ أنْ يُريدَ به المشاهدةَ، أي: يشاهدونَ عقوبتَه أو غلبتَه المؤدية إلى عقوبتِه .

قال الرازي: وفيه قولٌ ثالثٌ: وهو قولُ مُقاتِلٍ والكلبيِّ، أنَّ المرادَ مجموعُ الوجهينِ، فيَشهَدونَ عليه بفعلِه، ويَشهَدونَ عقابَه).

قال البقاعي : (لعلهم) إذا رأوه (يشهدون) أي أنه فعل بالآلهة هذا الفعل ، أو أنه ذكرها بسوء ، فيكون ذلك مسوغاً لأخذه بذلك ، أو يشهد بفعله بعضهم ، لأن الشيء إذا حضر كانت أحواله أولى بالذكر منها إذا كان غائباً ، وكان هذا عين ما قصده الخليل عليه السلام أن يبين – في هذا المحفل الذي لا يوجد مثله – ما هم عليه من واضح الجهل المتضمن قلة العقل. أ هـ

وقال الماوردي : (لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) فيه أوجه :

أحدها : يشهدون عقابه ، قاله ابن عباس.

الثاني : يشهدون عليه بما فعل ، لأنهم كرهوا أن يعاقبوه بغير بينة ، قاله الحسن ، وقتادة ، والسدي.

وقال ابن عاشور : ومعنى (يشهدون) لعلهم يشهدون عليه بأنه الذي توعد الأصنام بالكيد.

(**قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**) أي: فلمَّا أُحضِرَ إبراهيمُ قال له قَومُه: أأنت الذي حطَّمتَ أصنامَنا التي نَعبُدُها يا إبراهيمُ

(**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**) مشيراً إلى الذي لم يكسِرْه ، سلك عليه السلام مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصِده الذي هو إلزامُهم الحجّةَ على ألطف وجهٍ وأحسنِه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب ، حيث أبرز الكبيرَ قولاً في

معرض المباشِرِ للفعل بإسناده إليه كما أبرزه في ذلك المعرِض فعلاً بجعل الفأسَ في عنقه ، وقد قصد إسنادَه إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنامُ غاظته الطَّيْلاً حين أبصرها مصطفةً مرتّبةً للعبادة من دون الله سبحانه ، وكان غيظُ كبيرِها أكبرَ وأشدَّ حسب زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعلَ باعتبار أنه الحاملُ عليه .

قال ابن الجوزي : اختلف العلماء في وجه هذا القول من إبراهيم الطَّيْلاً على قولين.

أحدهما : أنه وإن كان في صورة الكذب ، إلا أن المراد به التنبيه على أن من لا قدرة له ، لا يصلح أن يكون إلهاً .

ومثله قول الملَكين لداود (إنَّ هذا أخي) ولم يكن أخاه (له تسع وتسعون نعجة) ولم يكن له شيء ، فجرى هذا مجرى التنبيه لداود على ما فعل ، وأنه هو المراد بالفعل والمثَل المضروب ؛ ومثْل هذا لا تسمّيه العرب كذباً.

والثاني : أنه من معاريض الكلام .

جاء في الحديث : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ الطَّيْلاً إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلُهُ (إِنِّي سَقِيمٌ) وَقَوْلُهُ : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وَقَالَ بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَاهُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَ أُخْتِي ...) .

وفي حديث الشفاعة (... وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى) .

واختلف هؤلاء العلماء في تسمية النبي ﷺ هذا كذباً على أقوال :

أن النبي ﷺ أطلق عليها الكذب من باب التجوز ، لأنها في الحقيقة شبيهة بالكذب ، لما فيها من إيهام السامع وإخباره بخلاف ما يعتقده المتكلم ، ولم يرد النبي ﷺ أنها من الكذب الذي هو قصد فول الباطل ، والإخبار بضد ما في النفس ، من غرض شرعي ، لأن هذا لا يجوز في حق الأنبياء .

وهذا رأي : ابن قتيبة ، والقاضي عياض ، وابن عطية ، وابن الجوزي ، وابن جزي ، وابن تيمية ، وابن القيم .

وقيل : إن إبراهيم فعل ذلك من باب التقية ودفع أذى الظالمين ، والكذب إذا كان لمثل هذا الغرض وكان لمصلحة شرعية ، فإنه لا مانع منه ولا يكون حراماً .

وهذا رأي : ابن جرير ، وابن حزم ، والواحدي ، والبغوي .

(**فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**) من فعلَه بهم ؟

قال ابن الجوزي : وهذا إلزام للحُجَّة عليهم بأنهم جماد لا يقدرون على النُّطق.

قال السعدي: وهذا الكلامُ مِن إبراهيمَ المقصِدُ منه إلزامُ الخَصمِ وإقامةُ الحُجَّةِ عليه؛ ولهذا قال: فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ وأراد الأصنامَ المكسَّرةَ اسألُوها لمَ كُسِّرَت؟ والصَّنَمَ الذي لم يُكسَّرْ، اسألُوه: لأيِّ شَيءٍ كَسَّرَها ؟ .

وقال ابنُ الجوزي: اختلف العُلَماءُ في وجهِ هذا القولِ مِن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ على قولينِ: أحدهما: أنَّه وإن كان في صورةِ الكَذِبِ إلَّا أنَّ المرادَ به التَّنبيهُ على أنَّ مَن لا قُدرةَ له لا يَصلُحُ أن يكونَ إلهًا...، ومِثلُ هذا لا تُسَمِّيه العَرَبُ كَذِبًا. والثاني: أنَّه من معاريضِ الكلامِ .

وقال ابن عاشور : والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثاً عظيماً مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعلَه بهم.

(**فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ**) أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه . (القرطبي)

قال ابن جزي: (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ) أي: رجَعوا إليها بالفكرةِ والنظرِ، أو رجَعوا إليها بالملامةِ .

(**فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ**) اختلف في المعنى :

فقيل : المعنى إنَّكم أنتم الظالمونَ بعبادتِكم من لا ينطِقُ، ولا يدفَعُ عن نفسِه شيئًا.

ورجحه : السمعاني، والبغوي، والنسفي، والشوكاني، والسعدي.

قال القرطبي : أي بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس.

وقيل المعنى: فرجعوا إلى أنفُسِهم بالملامةِ في عَدَمِ احترازِهم وحراستِهم لآلهتِهم، فقالوا: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أي: في ترِكِكم لها مهملةً لا حافظَ عندَها.

ورجحه : ابن كثير .

(**ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ**) أي : أدركَتْهم حَيرةُ سُوءٍ، فأطرقوا برُؤوسِهم في الأرضِ. (ابن كثير) .

وقيل : ثم غلبوا في الحجة ، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

وهذا اختيار ابن جرير .

قال القرطبي : قوله تعالى : (ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ) أي عادوا إلى جهلهم وعنادهم فقالوا (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ) .

(**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ**) وفي هذا إقرار منهم بعجز ما يعبدونه عن النُّطق ، فحينئذ توجهت لإبراهيم الحُجَّة ، فقال موبّخاً لهم :

(**قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ**) أي : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا: أتتركون عبادة الله الذي خلقكم، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشيء من النفع، ولا تضركم بشيء من الضر .

قال ابن الجوزي : وفي هذا حثٌّ لهم على عبادة من يملك النفع والضُّر .

(**أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**) أي : سحقا وقبحا لكم، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله تعالى عن جهل وسخف وطغيان.

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**) ما أنتم فيه من ضلال واضح، فترجعون عنه إلى عبادة الواحد القهار.

قال الشوكاني: في هذا تحقيرٌ لهم ولمعبوداتهم .

(**قَالُوا**) بعضهم لبعض .

قال الطبري : قال بعض قوم إبراهيم لبعض حرقوا إبراهيم بالنار .

قال البقاعى : ولما وصل بهم إلى هذا الحد من البيان ، فدحضت حجتهم ، وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، فانقطعوا انقطاعاً فاضحاً ، أشار سبحانه إلى الإخبار عن ذلك بقوله استئنافاً (قالوا) عادلين إلى العناد واستعمال القوة الحسية (حرقوه) بالنار .

(**حَرِّقُوهُ**) أي : لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به .

قال ابن عاشور: لما غلبهم بالحجة القاهرة لم يجدوا مَخلَصاً إلا بإهلاكه، وكذلك المبطل إذا قَرعَت باطلَه حجة فساده غضب على المحقّ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبتَه والتشفّي منه، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة. واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق لأن النار أهول ما يعَاقب به وأفظعه.

والتحريق : مبالغة في الحرق ، أي حرقاً متلفاً.

(**وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ**) ونصر الآلهة بإتلاف عدوّها.

(**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**) إن كنتم فاعلين النصر ، وهذا تحريض وتلهيب لحميتهم. (ابن عاشور)

قال ابن كثير : لَمَّا دُحِضَتْ حُجَّتُهُمْ وَبَانَ عَجْزُهُمْ وَظَهَرَ الْحَقُّ وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ، فَقَالُوا: حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ، فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا جِدًّا .

قَالَ السُّدِّيُّ: حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ فَتَنْذُرُ إِنْ عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَأَضْرَمُوهَا نَارًا، فَكَانَ لَهَا شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مِثْلُهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ ، فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، .

كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ (حَسْبِي اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا محمد عليهما السلام حِينَ قَالُوا إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوكيل) .

قال صاحب الكشاف: أجمعوا رأيهم- لما غلبوا- بإهلاكه، وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح. لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ولم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة.

قال الرازي : إنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات ، ولهذا قيل (إِن كُنتُمْ فاعلين) أي إن كنتم تنصرون آلهتكم نصراً شديداً ، فاختاروا أشد العقوبات وهي الإحراق.

(**قُلْنَا**) أي : تعجيزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له في إنجاء من آمن به .

(**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**) أي: فأوقدوا له نارًا لِيَحرِقوه، فلمَّا ألقَوا إبراهيمَ فيها قُلْنا لها: يا نارُ، كوني بردًا وسلامًا على إبراهيمَ. فأنجاه اللهُ منها، لم يَنَلْه فيها أذًى، ولا أحسَّ بمكروهٍ . (ابن كثير)

كما قال تعالى (فأنجاه الله من النار) .

قال القاسمي : (يَا نَارُ كُونِي بَرْداً) أي : باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب (وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) أي : ولا تنتهي في البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة .

ومعنى (وسلاماً) سلامة ، وأبعد من ذهب إلى أنها هنا تحية من الله . (أبو حيان)

فقوله (**قلنا** ..) القائل هو الله .

قال الرازي : وهو قول الأكثرين أن القائل هو الله ، وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر .

وقال أبو حيان : الظاهر أن القائل (قلنا يا نار كوني ..) هو الله .

فكانت كما أمرها الله تعالى ، وصدق -سبحانه- إذ يقول: بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

كما قال تعالى (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وعن أُمِّ شَريكٍ رَضِي اللَّهُ عنها (أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمَر بقتلِ الوَزَغِ ، وقال: كان يَنفُخُ على إبراهيمَ عليه السَّلام) .

قال ابن عطية : وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه ما رأيت اختصاره لقلة صحته ، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه (برداً وسلاماً) فخرج منها سالماً وكانت أعظم آية.

(**وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ**) أي : المغلوبين الأسفلين ، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك .

فَالْكَيْدُ الَّذِي أَرَادُوهُ بِهِ : إِحْرَاقُهُ بِالنَّارِ نَصْرًا مِنْهُمْ لِآلِهَتِهِمْ فِي زَعْمِهِمْ ، وَجَعْلِهِ تَعَالَى إِيَّاهُمُ الْأَخْسَرِينَ أَيِ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ خُسْرَانًا لِبُطْلَانِ كَيْدِهِمْ وَسَلَامَتِهِ مِنْ نَارِهِمْ .

وَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا فِي سُورَةِ «الصَّافَّاتِ» فِي قَوْلِهِ (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) وَكَوْنُهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَاضِحٌ ؛ لِعُلُوِّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامَتِهِ مِنْ شَرِّهِمْ . وَكَوْنُهُمُ الْأَخْسَرِينَ لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

وقال الشيخ ابن عثيمين : جعلهم (الأَسْفَلِينَ) وذلك بعدم نيل مرادهم بخروج إبراهيم سالمًا، فكان العلو له من وجهين:

الوجه الأول: أنه سلم مما أرادوا من إهلاكه.

الوجه الثاني: أن الله عز وجل أكرمه بأمر لم يكن معهودًا عند البشر، وهو سلامته من النار التي ظنوا أنها ستحرقه، فصاروا أسفلين من هذين الوجهين أنه سلم، وأن الله تعالى أكرمه بأمر لم يكن معهودًا، وهذا بلا شك يوجب أن يكون عاليًا عليهم، بل عاليًا علوًّا بالغاً .

الفوائد :

١. الثناء على إبراهيم .

٢. إثبات رسالة إبراهيم .

٣. الدعوة إلى الله .

٤. الدعوة إلى التوحيد وترك الشرك دعوة جميع الأنبياء .

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٦. جرأة إبراهيم في قول الحق أمام قومه .

٧. استخدام الحجة والبرهان المنطقي في الدعوة إلى الحق ودحض الباطل .

٨. وجوب تحقير ما حقره الله .

٩. عندما يعجز الباطل عن مقابلة الحجة بالحجة يلجأ إلى استخدام القوة والعنف.

١٠. تسليم إبراهيم عليه السلام لقضاء ربه سبحانه وتعالى؛ بتحمل أعباء قول الحق، والدعوة إليه.

١١. الله سبحانه وتعالى لا يترك أنبياءه وأولياءه الذين يصدعون بالحق؛ بل ينصرهم، ويبطل كيد أعدائهم مهما بلغ.

١٢. الصبر على المصائب وتحمل الأذى .

١٣. حين يتعلق الأمر بالعقيدة والتوحيد والإيمان وفي مقابله الكفر والوثنية والشرك ترخص النفوس والأرواح وتكسد المتاع والأموال وتهون الذرية والأهل والإخوان.

١٤. شدة كيد هؤلاء المكذبين لإبراهيم عليه السلام، حيث أروا الناس أنهم يبنون له بنيانًا دون أن يروه أنهم يريدون أن يحرقوه، لقوله (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا) .

١٥. أن النار التي أضرموها في هذا البنيان كانت عظيمة، لقوله: (فِي الْجَحِيمِ) والجحيم هي النار العظيمة.

١٦. بيان ما يكنه أعداء الإسلام للمسلمين وللإسلام من إرادة الكيد بالإسلام وأهله، وهذا كما أنه في الأمم السابقة فيكون في الأمم اللاحقة، لقول الله تعالى (كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ) .

١٧. أن هؤلاء الذين كادوا كاد الله بهم، فجعلهم هم الأسفلين.

١٨. حين يلاقي أنبياء الله ورسله والصديقون صنوف الأذى وألون التنكيل فيحرقون ويقتلون ويسجنون ويهجَّرون فيثبتون؛ فإن ثباتهم ذلك يبعث الحياة في نفوس الأتباع ويبقي نور الحق مشعا بين تلك الظلمات.

١٩. ليس من أحد نال في سبيل الله والدعوة إليه ومنابذة الباطل وأهله بلاء مثلما ناله أنبياء الله، وكلما كان العبد بأنبياء الله ورسله أكثر اتباعا وتأسيا كلما زاد بلاؤه.

٢٠. أن من يتعالى على الحق فإن الله تعالى يجازيه بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء أرادوا العلو والفساد في الأرض، فعاملهم الله تعالى بنقيض قصدهم فجعلهم الأسفلين.

٢١. أن الحكم لله عز وجل، وأن بني آدم مهما بلغوا من الطغيان فإنهم تحت حكم الله تعالى وسلطانه، لقوله (فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ).

٢٢. أن الجزاء من جنس العمل، لأن هؤلاء لما طغوا واعتدوا وتعالوا عاقبهم الله تعالى بالسفل المناقض لما أرادوا، فكانت العقوبة مناسبة للفعل .

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)) .
[الأنبياء : ٧١-٧٢] .

============

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) أي : ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخِصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار .

قال ابن الجوزي : فأما قوله تعالى (إلى الأرض التي باركنا فيها) ففيها قولان.

أحدهما : أنها أرض الشام ، وهذا قول الأكثرين.

وبَرَكتها : أن الله عزّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها ، وأكثر فيها الخصب والثمار والأنهار.

والثاني : أنها مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، والأول أصح.

وقال ابن عطية : واختلف الناس في الأرض التي بورك فيها ولجأ إليها إبراهيم ولوط عليهما السلام ، فقالت فرقة هي مكة وذكروا قول الله تعالى (للذي ببكة مباركاً) وقال الجمهور من أرض الشام وهي الأرض التي بارك فيها أما من جهة الآخرة فبالنبوءة وأما من جهة الدنيا ففي أطيب بلاد الله أرضاً وأعذبها ماء وأكثرها ثمرة ونعمة وهو الموضع المعروف بسكنى إبراهيم وعقبه.

وقال أبو حيان : والأرض التي صار إليها هي أرض الشام وبركتها ما فيها من الخصب والأشجار والأنهار وبعث أكثر الأنبياء منها.

وقال القرطبي: وقيل لها: مُباركةٌ؛ لكثرةِ خِصبِها وثمارِها وأنهارِها، ولأنَّها معادِنُ الأنبياءِ .

وقال ابن عاشور: وصَفَها الله بأنَّه باركها للعالَمينَ، أي: للنَّاسِ، يعني الساكنينَ بها؛ لأنَّ الله خلقها أرضَ خِصبٍ ورخاءِ عَيشٍ، وأرضَ أمنٍ .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) أي: وأعْطَينا إبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وأعْطَيناه حَفيدَه يَعقوبَ بنَ إسحاقَ زيادةً، وفَضلًا منَّا كما قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) .

فالمرادَ بالنافلةِ: يعقوبُ عليه السلام .

واختاره : السمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيم، واختاره النيسابوري، والشوكانيُّ.

قال القرطبي: قوله تعالى (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) أي: زيادةً؛ لأنَّه دعا في إسحاقَ، وزِيدَ يَعقوبَ مِن غَيرِ دعاءٍ، فكان ذلك نافِلةً، أي: زيادةً على ما سأل؛ إذ قال (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) . ويُقالُ لوَلَدِ الوَلَدِ نافِلةٌ؛ لأنَّه زيــادةٌ على الوَلَدِ .

وقال القاسمي: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ) أي: بدعوته (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) (وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال.

قال ابن الجوزي : قوله تعالى : {وَوَهبْنا له} يعني : إبراهيم {إسحاق ويعقوب نافلة} وفي معنى النافلة قولان.

أحدهما : أنها بمعنى الزيادة ، والمراد بها : يعقوب خاصة ، فكأنه سأل واحداً ، فأُعطي اثنين .

وهذا مذهب ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، والفراء.

والثاني : أن النافلة بمعنى العطية ، والمراد : بها إسحاق ويعقوب ، وهذا مذهب مجاهد ، وعطاء. (زاد المسير) .

واختار هذا القول الرازي .

وقال ابن عطية : و(إسحاق) بن إبراهيم و(يعقوب) ولد إسحاق و"النافلة" العطية كما تقول نفلني الإمام ونافلة الطاعة كأنها عطية من الله تعالى لعباده يثيبهم عليها ، وقالت فرقة الموهوب (إسحاق) و"النافلة" (يعقوب) والأول أبين .

(**وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ**) أي: وُكُلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلْنا طائِعينَ لله، مُجتَنِبينَ محارِمَ اللهِ .

وفي هذا : فضل أن يكون الإنسان من الصالحين لِيَلحَقَ بِالصَّالِحِينَ وَيَنَالَ رَحمَةَ رَبِّ العَالَمِينَ .

قَالَ تَعالى عَن إبرَاهِيمَ ﷺ (وَلَقَدِ اصطَفَينَاهُ فِي الدُّنيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ عَن إِسحَاقَ ﷺ (وَبَشَّرنَاهُ بِإِسحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ عَن نَبِيِّه لُوطٍ ﷺ (وَأَدخَلنَاهُ فِي رَحمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ عَن عِيسى ﷺ (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهدِ وَكَهلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ عَن عَدَدٍ مِن أَنبِيَائِهِ – عَلَيهِمُ السَّلامُ – (وَزَكَرِيَّا وَيَحيَى وَعِيسَى وَإِليَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وَقَال (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِين) .

وَقَالَ عَن يُونُسَ ﷺ (فَاجتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِين) .

وَلأَهمِيَّةِ الصَّلاحِ وَعِظَمِ أَمرِهِ، فَقَد دَعَا الأَنبِيَاءُ بِهِ لأَبنَائِهِم قَبلَ وُجُودِهِم، وَدَعَوا بِهِ لأَنفُسِهِم وَحَرِصُوا عَلَى أَن يُختَمَ لَهُم بِهِ .

فَهَذَا إِبرَاهِيمُ ﷺ يدعُو رَبَّهُ قَائِلا (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِين) .

وَيَقُولُ (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين) .

وَهَذَا يُوسُفُ ﷺ يدعُو رَبَّهُ قَائِلاً (تَوَفَّنِي مُسلِمًا وَأَلحِقنِي بِالصَّالِحِينَ) .

وإِنَّ لِلصَّلاحِ فَضلاً عَلَى أَهلِهِ وَثِمَارًا يَجنُونَهَا فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنَّ لأَهلِهِ عِندَ رَبِّهِم مَنزِلَةً عَظِيمَةً وَمَكَانَةً عَالِيَةً .

فَالصَّالِحُونَ مَوعُودُونَ بِوِلايَةِ اللهِ لَهُم، وَمَن تَوَلاَّهُ اللهُ فَمَا أَعظَمَ حَظَّهُ!

قَالَ تعالى (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين) .

وَلِلصَّالِحِينَ بِشَارَاتٌ وَكَرَامَاتٌ تَطمَئِنُّ بِهَا نُفُوسُهُم، وَتُثَبَّتُ بِهَا قُلُوبُهُم، وَذَلِكَ بِمَا يُكرَمُونَ بِهِ مِنَ الرُّؤَى الصَّالِحَةِ الصَّادِقَةِ .

قَالَ ﷺ (الرُّؤيَا الحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزءٌ مِن سِتَّةٍ وَأَربَعِينَ جُزءًا مِنَ النُّبُوَّة) .

وَالصَّالِحُونَ هُمُ المستَحِقُّونَ لِلتَّمكِينِ فِي الأَرضِ، وَذَلِكَ وَعدُ اللهِ الَّذِي لا يُخلِفُ المِيعَادَ .

قَالَ تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...) .

ومنهُ عَلَى قَولِ بَعضِ المفسّرِينَ قَولهُ تعالى (وَلَقَد كَتَبنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعدِ الذِّكرِ أَنَّ الأَرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون) وَأَكثَرُ المفَسّرِينَ عَلَى أَنَّ المرَادَ أَرضُ الجَنَّةِ .

وَفِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ : قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (أَعددتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَينٌ رَأَت، وَلا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلبِ بَشَرٍ، وَاقرَؤُوا إِن شِئتم (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) .

وَالصَّلاحُ بَرَكَةٌ تَنتَقِلُ مِنَ الآبَاءِ إِلَى الأَبنَاءِ، وَحَسَنَاتٌ مِنَ الأَبنَاءِ إِلَى الآبَاءِ .

قَالَ تعالى عَنِ الغُلامَينِ اللَّذَينِ بَنَى الخَضِرُ عليه السلام جِدَارَهُمَا (وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَينِ يَتِيمَينِ فِي المدِينَةِ وَكَانَ تَحتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَستَخرِجَا كَنزَهُمَا رَحمَةً مِن رَبِّكَ) .

وَفِي الحَدِيثِ قَالَ عليه السلام (إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ انقَطَعَ عَنهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِن ثَلاثَةٍ: إِلاَّ مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَه) .

وَآخِرُ مَا يَنَالُهُ العَبدُ الصَّالِحُ فِي الدُّنيَا جَزَاءَ صَلاحِهِ، أَنَّهُ يُبَشَّرُ عِندَمَا يُوضَعُ عَلَى قَبرِهِ فَيَستَعجِلُ الدَّفنَ لِذَلِكَ .

قال عليه السلام (إِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ عَلَى سَرِيرِهِ قَالَ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ السُّوءُ عَلَى سَرِيرِهِ قَالَ: يَا وَيلَهُ، أَينَ تَذهَبُونَ بِي؟!).

ويأتي السؤال المهم.. هل أنت من الصالحين؟ وهل تريد أن تكتب فيهم؟

والأمر يسير لمن يسر الله له.. وكل ما عليك فعله أن تحقق مراد الله في قوله جل في علاه (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِين) .

الفوائد :

١-من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه ، فالله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين لا يتفضل عليه أحد من العالمين فمن ترك من أجله شيئًا عوضه مثله وزيادة؛ فإن إبراهيم عليه السلام لم أيس من قومه قرر أن يعتزلهم ويبتعد عنهم فوهب الله سبحانه وتعالى له على الكبر إسماعيل وإسحاق.

قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) .

٢-فالواجب على المسلم أن يهاجر بدينه من أرض الكفر وأرض الفتن إلى أرض أخرى ليدعو إلى الله ويعبد الله تعالى فيها. فقد هاجر إبراهيم عليه السلام من بلاده بابل في العراق إلى الأرض المقدسة ومن ثم إلى مصر ثم عاد مرة أخرى إلى الأرض المقدسة. وكما فعل النبي ﷺ حينما أمر أصحابه أولاً بالهجرة إلى الحبشة ليفروا بدينهم من الفتن ومن العذاب الذي كاله لهم الكفار، ثم هاجر ﷺ هو وأصحابه مرة أخرى إلى المدينة المنورة لينشر الإسلام. وكذلك عند التوبة يجب على المرء أن يعتزل أهل المعاصي وأن يهاجر من دياره إلى ديار المؤمنين الصالحين الذين يعبدون الله تعالى ويعينونه على الطاعة.

٣-فضل من هاجر لله، فإن الله ينصره ويعزه ويهديه .

كما قال تعالى في سورة مريم (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

قال المفسرون: لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام، واعتزل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خيراً منهم، فوهب له (إسحق) و(يعقوب) أولاداً أنبياءً، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه، بأولئك الأولاد الأطهار، ويعقوبُ ابن إسحق، وهما شجرتا الأنبياء، فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل.

كما قال تعالى (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ).

وقال سُبحانه (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ).

وقال عزَّ وجلَّ (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ).

قال ابن الجوزي: قال المفسِّرون: هاجَر عنهم إلى أرضِ الشَّامِ، فوهَب اللهُ له إسحاقَ ويعقوبَ، فآنسَ الله وحَشَته عن فراقِ قَومِه بأولادٍ كرام.

وقال ابن كثير: المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوة.

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) أي: جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم، لما لهم من الخصال المرضية، ويُصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة.

قال الطبري: أي: رزقناهم الثناء الحسن، والذكر الجميل في الناس.

قال أبو حيان: ولسان الصدق: الثناء الحسن الباقي عليهم آخر الأبد.

واللسان في القرآن يطلق ثلاث إطلاقات:

الأول: يطلق ويراد به الجارحة.

كما قال تعالى (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ).

الثاني: يطلق ويراد به اللغة.

كما في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ).

وقوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ).

الثالث: يطلق ويراد به الذكر والثناء الحسن.

كما في هذه الآية (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

وكما في قوله تعالى (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ).

<u>ومن فضائل الهجرة لله :</u>

قوله تعالى (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً).

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن يه.

فمن هاجر في سبيل الله: ويكون في سبيل الله بشرطين: الهجرة لله إخلاصاً لا لهدف آخر، ويكون متابعاً للرسول ﷺ (يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا) قيل: المراغم التحول من أرض إلى أرض، وقيل: متزحزحاً عما يكره.

قال ابن كثير: وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه.

وقال السعدي: هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا.

قال ابن كثير: قوله تعالى (مُرَاغَمًا كَثِيرًا) والظاهر – والله أعلم – أنه التمنع الذي يُتحصن به، ويراغم به الأعداء.

وقال القرطبي: وهذا كله تفسير بالمعنى، وكله قريب بعضه من بعض؛ فأما الخاص باللفظة فإن المراغم موضع المراغمة كما ذكرنا، وهو أن يرغِم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده؛ فكأن كفار قريش أرغموا أُنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أُنوف قريش لحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة. وقال: وهو مشتق من الرِّغام، ورَغِم أنف فلان أي لَصِق بالتراب، وراغمت فلاناً هجرته وعاديته، ولم أُبالِ إن رغِم أنفه.

وقال الرازي: وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية، وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب من حمله على ما قالوه، والله أعلم.

ثانياً: أن الله يوسع له خلافاً لمن يظن خلاف ذلك.

لقوله تعالى (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً).

(وَسَعَةً) يعني الرزق.

وقال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبرَ أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطرَبًا ومتَّسعًا. وقد يدخل في "السعة"، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهمّ والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني "السعة"، التي هي بمعنى الرَّوْح والفرَج من مكروهِ ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظَهْري المشركين وفي سلطانهم.

قال الرازي: كأنه قيل: يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفاً من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سبباً لرغم أنوف أعدائك، ويكون سبباً لسعة عيشك، وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته من حيث إنها تصير سبباً لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سبباً لسعة العيش عليه.

رابعاً: ينالون رحمة الله.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم).

قال السعدي: هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة، وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته ... ، وأما الهجرة فهي مفارقة المحبوب والمألوف لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه تقربًا إلى الله ونصرة لدينة، وأما الجهاد فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان. وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء. فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين رحمة الله؛ لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة.

وفيها مراغمة للشيطان .

كما قال ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ: فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ...) .

(**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)**) .
[الأنبياء : ٧٣] .

==========

(**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**) أي: وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أئمَّةً يَقتَدي بهم النَّاسُ في طاعةِ اللهِ، ويَدْعونَ النَّاسَ بأمْرِنا إلى عبادةِ اللهِ، واتِّباعِ أمْرِه، واجتنابِ نَهْيِه .

قال الرازي : أي جعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا وإذننا.

قال القرطبي : ومعنى "بِأَمْرِنَا" أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي ؛ فكأنه قال يهدون بكتابنا.

(**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ**) من الأعمال الصالحات – المستحبات والواجبات – وترك المنكرات .

فمن خصال أهل الإيمان، وصفات أهل الورع والإحسان: مسارعتهم إلى فعل الخيرات، ومبادرتهم إلى الطاعات والقربات، عملًا بقوله الكريم جل شأنه (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وقال تعالى (فاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

تصدَّق على مسكين، امسح رأس يتيم، أَمِطِ الأذى عن الطريق، وتفقَّد أحوال الصديق، أصلِحْ بين المتخاصمين وفرّج همَّ المكروبين، وأعطِ أملًا للمقهورين اليائسين، وربِّتْ على كتِف البائسين المعذَّبين؛ فلن يكلفك هذا كثيرًا، فقط نية طيبة تصلح ما أفسدته حوادث الأيام، وتقلب كل موازين الحياة.

كُن مِفتاحًا للخير مِغلاقًا للشر، ثم انتظر من ربِّك التعويض والبر.

قال: (كل تسبيحةٍ صَدَقة، وكل تحميدةٍ صَدَقة، وكل تهليلةٍ صَدَقة، وكل تكبيرةٍ صَدَقة، وأمر بالمعروف صَدَقة، ونهيٌ عن المُنكر صَدَقة) .

قَالَ (مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ) .

قال ﷺ (ما مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلَّا كانَ ما أُكِلَ منه له صَدَقَةً، وما سُرِقَ منه له صَدَقَةٌ، وما أكَلَ السَّبُعُ منه فَهو له صَدَقَةٌ، وما أكَلَتِ الطَّيْرُ فَهو له صَدَقَةٌ، ولا يَرْزَؤُهُ أحَدٌ إلَّا كانَ له صَدَقَةٌ) .

وقال ﷺ (كلُّ معروفٍ صَدَقة) .

إن الاعتياد على العطاء يرقى بالنفس إلى أسمى الغايات، ويصل بها لأعلى الدرجات، ففي وقت الاحتياج تنكشف معادن الناس وعلو نفوسهم وقوة عزائمهم.

(**وَإِقَامَ الصَّلَاةِ**) أي : يأتوا بها على وجهها المستقيم ، بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله ﷺ .

قال السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة).

إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه

عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

(**وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ**) أي : إعطاء لزكاة المفروضة طيبة بها نفوسكم لمستحقيها.

والزكاة شرعاً: دفع مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله تعالى.

وسميت بذلك: لأنها تزكي المال، وتزكي صاحب المال، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ)، بل وتزكي المجتمع كله، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء.

قال ابن عاشور : وتخصيص (إقام الصلاة وإيتاء الزكاة) بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما لأن بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهَى عن الفحشاء والمنكر ، وبالزكاة صلاحَ المجتمع لكفاية عوز المعوزين.

وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم عليه السلام .

فأصل دعوة الأنبياء : إخلاص لله ، ورحمة ونفع للخلق .

ففي الصلاة إخلاص للمعبود، وفي الزكاة نفع للمخلوق.

وكثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة كقوله تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ).

قيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

قال السعدي: وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحي إليهم الأمر بذلك كما هو بيّن.

(**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**) أي: وكانوا لنا طائعِينَ بإخلاصٍ وذُلٍّ وخُضوعٍ وخُشوعٍ، يَفعَلونَ ما يأمُرونَ النَّاسَ به، ويجتَنِبونَ ما يَنهونَهم عنه ، ويستمرون على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

ويكون العبد محققاً للعبودية بأمرين:

الأول: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثاني: الإخلاص لله تبارك وتعالى.

ففي هذا عظم منزلة العبودية ، وأن العبد كلما كان أعظم عبودية لله كان أعظم منزلة عند الله .

وقد وصف الله نبيه بالعبودية في أعلى المقامات:

في مقام التحدي .

قال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) .

وفي مقام الإسراء والمعراج .

قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).

وفي مقام الإيحاء .

قال تعالى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وفي مقام الدعوة .

قال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقد قال تعالى عن المسيح ابن مريم (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه)، وقال ﷺ (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله) رواه البخاري.

قال ابن تيمية: والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له: كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

ووصف الله بذلك أكمل خلقه وأحبهم إليه وهم رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ).

وقال تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

وقال تعالى عن المسيح (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ).

وقال عنه وعن الملائكة (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ).

وقال أيضاً عن الملائكة (وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ).

والعبادة هي الغاية المحبوبة لله تعالى والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، وبها أرسل جميع الرسل كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

تنبيه :

وصف بيت آل إبراهيم الأسوة:

يهدون الناس إلى ربهم بوحيه.

يفعلون الشرائع والطاعات وأعظمها الصلاة والزكاة.

خاشعين لربهم متذللين له في عبادته. .

الفوائد :

١. فضل أن يكون الإنسان إماماً في الدين .

٢. الدعوة تقوم بدعوة الناس إلى الكتاب والسنة .

٣. على المسلم أن يحرص على الإكثار من فعل الخيرات .

٤. أهمية الصلاة .

٥. أهمية الإخلاص لله .

٦. أهمية الزكاة .

٧. إنفاق المال في الخير من علامات الإيمان .

٨. فضل الكرم .

٩. ذم البخل .

١٠. أعلى مقام أن يكون العبد عبداً لله .

١١. على المسلم أن يجتهد أن يكون عبداً لله .

١٢. العبودية سلم للإمامة في الدين (وجعلناهم أئمة...) وختم الآية بقوله (وكانوا لنا عابدين) .

١٣. من أهم أسباب ضعف تأثير الإصلاح ضعف الجانب التعبدي عند بعض المصلحين، فالإصلاح عبادة، وقد وصف الله قدوتنا الأنبياء بقوله: (وكانوا لنا عابدين).

١٤. من علامات محبة الله للعبد أن يُسخّره لفعل الخير (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) .

(وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)) .

[الأنبياء : ٧٤-٧٥] .

==============

(وَلُوطًا) وهو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل (سَدُوم) وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل "سَدُوم" عليهم لعائن الله.

قال القرطبي: بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم، وكان ابن أخي إبراهيم.

(آتَيْنَاهُ حُكْمًا) قيل : هي النبوة .

ورجحه : القرطبي ، وابن عاشور ،

قال القرطبي : والحكم النبوّة .

وقال ابن عاشور : والحُكم : الحكمة ، وهو النبوءة ، قال تعالى (وآتيناه الحكم صبياً) .

قال ابن عطية :والحكم الذي أوتيه النبوة ، وقيل : حسن الفصل بين الخصوم في القضاء.

(وَعِلْمًا) أي : المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم ، وقيل : "عِلْماً" فهما ؛ والمعنى واحد. (القرطبي) .

وقال ابن عاشور : والعِلم : علم الشريعة ، والتنوين فيها للتعظيم.

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ) قال الرازي : والمراد أهل القرية لأنهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولأن الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك .

والقرية : سَدوم .

(الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ) الخبائث : أفعالهم المنكَرة ، فمنها إتيان الذكور وقطع السبيل ، إلى غير ذلك مما قد ذكره الله عز وجل عنهم في مواضع .

والخبائث : جمع خبيثة ، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

كما قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

قال ابن عطية: والفاحشة هنا إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم.

وقال تعالى (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) .

وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...).

ومن أعظم خبائثهم : تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن.

كما قال تعالى عنهم : (قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا لوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين) .

وقال تعالى (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) .

قال القاسمي : يعني اللواطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمي اللوطي منكساً من مكان عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم .

(**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ**) أي : أصحاب عمل سيئ ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم .

(**فَاسِقِينَ**) أي : خارجين من كل خير .

(**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا**) أي : بإنجائه من بينهم.

وقيل : في النبوّة.

وقيل : في الإسلام.

وقيل : الجنة.

قال الشنقيطي : شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم ، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة ، كما في الحديث الصحيح (تحاجّت النّار والجنة " الحديث. وفيه : " فقال للجنة أنت رَحْمَتي أرحم بها من أشاء من عبادي) .

(**إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**) الذين أصلحوا أعمالهم إخلاصاً لله ومتابعة للرسول ﷺ .

وفي هذا دليل على أن أعظم سبب لاستجلاب رحمة الله الصلاح .

وقد ذكر الله تعالى قصة لوط مع قومه وأنه نصحهم وحذرهم من فعل القبيح وهو اللواط فلما كذبوا أهلكهم الله .

قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) .

وقال تعالى (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) .

(أتأتون الفاحشة) فاحشةُ اللواطِ -قَبَّحَهَا اللَّهُ وَقَبَّحَ مُرْتَكِبَهَا- أولُ مَنْ فَعَلَهَا من أهلِ الدنيا قومُ لوطٍ، وهي من خسائسِ الذنوبِ الجامعةِ بينَ الخسةِ ودناءةِ صاحبِها ورداءتِه، وشناعتِها وكثرةِ مفاسدِها، فإن لها مفاسدَ عظيمةً، مع أنها لاَ يرتكبُها إلا أخسُّ الناسِ، وأرذلُ الناسِ، وأقبحُ الناسِ دِينًا، ومروءةً وإنسانيةً، الذين يَرْتَكِبُونَهَا أشبهُ شيءٍ بالبهائمِ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ، وَقَبَّحَ فِعْلَهُمْ القبيحَ.

ومن خسائسِ هذه الفاحشةِ: أنها إن انْتَشَرَتْ في الناسِ واستغنى الرجالُ بالرجالِ صار ذلك سببًا لانقطاعِ الجنسِ الإنسانيّ ودمارِ الدنيا، وخصلةٌ إذا تَمَادَى الناسُ فيها كانت خَرَابًا لجميعِ الدنيا، هي من أَخَسِّ الخصالِ. ويزعمُ الناسُ الذين مَارَسُوا أضرارَ هذه الخسيسةِ أن الإنسانَ المفعولَ به إذا نَزَلَ مَنِيُّ اللائطِ فيه أن ذلك الْمَنِيَّ – والعياذُ بالله – يُورِثُهُ أضرارًا قبيحةً: يجعلُه دَيُّوثًا، وَيُضَيّعُ هِمَّتَهُ، ويخربُ إنسانيتَه وكيانَه، فيبقى القبيحُ الخسيسُ الخنزيرُ كَلاَشيء.

– قال ابن عطية: و {الفاحشة} إتيان الرجال في الأدبار.

(وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) أي وأنتم تعلمون أنها فاحشة وأنها عمل قبيح، وقيل: وأنتم تبصرون أي تشاهدون بعضكم بعضاً كما قال تعالى (إنكم تأتون في ناديكم المنكر).

فأهلكهم الله عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا ﷺ وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فقد رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ).

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ).

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللَّهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.

(مَّنضُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض.

(مسومة) أي: مجعولاً فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به.

الفوائد :

١. نبوة لوط ﷺ .

٢. فضل العلم وأنه يشرف به الإنسان .

٣. أن الله ينجي أهل الإيمان وينصرهم .

٤. خبث قوم لوط وانسلاخهم إلى البهيمية .

٥. من آيات الله هلاك المكذبين .

٦. أن اللواط خبيث وفعل منكر .

٧. فضل الصلاح .

٨. أن الصلاح سبب للإدخال في رحمة الله .

(وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)) .

[الأنبياء : ٧٦-٧٧] .

============

(وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ) أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نوحًا حينَ دعا رَبَّه -مِن قَبلِ إبراهيمَ ولوطٍ- أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه الكافرينَ، وأن يُهلِكَهم .

(إِذْ نادى) أي : دعا الله تعالى على قومه بالهلاك .

كما قال تعالى (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

وقال سُبحانَه (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) .

وقال عزَّ وجلَّ (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) .

وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا) .

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) أي : أجاب الله دعاءه فأهلك قومه .

(فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) الذين آمنوا معه .

كَمَا قَالَ تعالى (وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) .

والمراد بأهله من آمن منهم، أما من لم يؤمن فقد غرق مع من غرق كابنه، كما قال تعالى (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

(مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) من الغم الشديد .

قال أبو حيان : والكرب : أقصى الغم ، والأخذ بالنفس .

وقال أبو السعود : وأصلُ الكرب الغمُّ الشديد.

قيل : من الطوفان الذي أغرقَ قومَ نوحٍ.

واختاره : ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابن عطية ، وابنُ عاشور.

قال الرازي : (مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) أنه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين.

وقال ابن عطية : و (الكرب العظيم) الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب .

وقال القرطبي : (مِنَ الكرب العظيم) أي من الغرق.

وقال الشوكاني : (مِنَ الكرب العظيم) أي من الغرق بالطوفان .

وقال ابن عاشور: الكَربُ العَظيمُ: هو الطوفانُ. والكربُ: شِدَّةُ حُزنِ النَّفسِ بسَبَبِ خَوفٍ أو حُزنٍ. ووجهُ كَونِ الطوفانِ كَربًا عَظيمًا: أنَّه يَهولُ النَّاسَ عندَ ابتدائِه وعندَ مَدِّه، ولا يزال لاحِقًا بمواقِعِ هُروبِهم حتى يَعُمَّهم، فيَبقَوا زمنًا يذوقونَ آلامَ الخَوفِ فالغَرقِ، وهم يَغرَقونَ ويَطفُونَ حتى يموتوا بانحباسِ التنفُّسِ، وفي ذلك كُلِّه كَربٌ مُتكَرِّرٌ؛ فلذلك وُصِفَ بالعَظيمِ .

وقيل : مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أي: مِن الشدَّةِ والتكذيبِ والأذَى.

واختاره ابن كثير .

قال ابن كثير : وَقَوْلُهُ (مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) أَيْ مِنَ الشِّدَّةِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَى، فَإِنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَكَانُوا يتصدون لِأَذَاهُ وَيَتَوَاصَوْنَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى خِلَافِهِ .

وقيل : مجموع الأمرين .

قال الرازي : أنه مجموع الأمرين وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو الأقرب لأنه عليه السلام كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه ، وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضاً على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه.

وقال البقاعي : (من الكرب العظيم) من الأذى والغرق .

(**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) أَيْ : وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ مُنْتَصِرًا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا .

(**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ**) يفعلون السوء .

(**فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**) أَيْ : أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِعَامَّةٍ، وَلَمْ يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحد، كما دعا عليهم نبيهم.

قد دعا نوح على قومه ونادى ربه:

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)

وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ).

فإن قيل لماذا دعا نوح على قومه :

دعا نوح على قومين لأمرين:

الأمر الأول: أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل.

كما قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

الأمر الثاني: أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً).

قال قتادة: أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء [أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن] فعند ذلك دعا عليهم.

أهلك الله قوم نوح بالغرق:

كما قال تعالى (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ).

وقال تعالى (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا).

وقال تعالى (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ).

وكفر من أهل نوح امرأته وابنه:

قال تعالى (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ).

وقال سبحانه (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ).

قوله (فَخَانَتَاهُمَا) ليس المراد في فاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، قال ابن عباس: أما خيانة امرأت نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأت لوط فكانت تدل قومها على أضيافه.

وهذه القصة لها شأن عظيم لقوله تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ).

والنبأ وهو الخبر، والنبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأَوَّلِين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا).

الفوائد :

١. إثبات نبوة نوح .

٢. أن نبي الله نوح قد دعا قومه واجتهد في دعوتهم لكنهم لم يستجيبوا .

٣. دعاء نوح على قومه بعدما علم أنهم لن يؤمنوا .

٤. استجابة الله دعاء نوح .

٥. نصرة الله لأوليائه الصالحين .

٦. هلاك المكذبين .

٧. من أعظم آيات الله نصرة المؤمنين وهلاك المكذبين .

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)) .

[الأنبياء : ٧٨ -٨٢] .

============

(**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ**) أي : واذكر يا محمد قصة (داود وسليمان) .

وسليمان هو ابن داود، وكلاهما من أنبياء الله سبحانه، وينتهى نسبهما إلى يعقوب ﷺ وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح ﷺ بألف سنة تقريبا، وقد جمع الله تعالى لهما بين الملك والنبوة.

وسليمان ابنه الذي وهبه الله له وورثه كما قال تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) .

وقال تعالى (وورث سليمان داود) .

(**إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ**) حين يحكمان في شأن الزرع .

(**إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ**) أي: رعَتْ لَيلًا، والنَّفشُ: الرَّعيُ باللَّيلِ .

(**وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ**) أي: وكنا لحُكمِ داودَ وسُلَيمانَ والمتحاكِمين إليهما عالِمينَ لا يخفَى علينا شي (إن الله على كل شيء شهيد) .

قال ابن الجوزي: وفي المشارِ إليه قولان:

أحدُهما: داودُ وسليمانُ، فذكرهما بلَفظِ الجَمعِ؛ لأنَّ الاثنينِ جمعٌ، هذا قول الفرَّاء.

والثاني: أنهم داود وسليمانُ والخصومُ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

ورجح القول الأول : القرطبي ، والشوكاني.

ورجح القول الثاني: ابنُ جرير، والزمخشري، وابنُ عطية، والبيضاوي، وابن جزي، وأبو حيان، والبقاعي، والقاسمي، وابن عاشور.

قال المفسرون : تخاصم الى داود رجلان ، دخلت غنم احدهما على زرع الآخر بالليل ، فأفسدته فلم تبق منه شيئا ، فقضى بان يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على " سليمان " وهو بالباب ، فأخبراه بما حكم به ابوه ، فدخل عليه فتال : يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان ارفق للجميع قال : وما هو ؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الارض ، فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم ، وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع ردت الغنم الى صاحبها ، والارض الى ربها ، فقال له داود : وفقت يا بنى وقضى بينهما بذلك ، فذلك قوله تعالى : [ففهمناها سليمان] .

قال الرازي : قال أكثر المفسرين : دخل رجلان على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيئاً ، فقال داود ﷺ : اذهب فإن الغنم لك.

فخرجا فمرا على سليمان ، فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه : فقال : لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا.

فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال : كيف كنت تقضي بينهما ، فقال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه.

قال النحاس : إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريباً منه .

(**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**) أي: ففهَّمْنا تلك القضيَّةَ سُلَيمانَ .

ويفهم من هذا أن داود عليه السلام لم يفهم الحكومة فيها ولم يوفق للصواب ، وأن حكمهما كان باجتهاد .

قال الماوردي : ... وهو قول الجمهور من العلماء والمفسرين أن حكمهما كان مختلفاً أصاب فيه سليمان ، واخطأ داود ، فأما حكم سليمان فإنه قضى لصاحب الحرث، وأما حكم سليمان فإنه رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بدرّها ونسلها، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليأخذ بعمارته ... .

وهذا دليل على أن حكمهما كان عن اجتهاد ، وهذا قول جمهور العلماء .

قال ابن عطية : وقال جمهور الأمة إن حكمها كان باجتهاد .

وقال القرطبي : وقال قوم : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى إليهما ، فحكم داود بوحي ، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود ، وعلى هذا (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) أي بطريق الوحي الناسخ لما أوحي إلى داود ، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود ؛ ولهذا قال : (وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً) .

هذا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك ، وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وهي :

ووجه الاجتهاد : ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساوياً لقيمة الغنم فكان عنده أن الواجب في ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم إلى المجنى عليه .

وقال الشوكاني : وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد .

قال السعدي: قضى فيه داودُ عليه السلامُ بأنَّ الغَنَمَ تكون لصاحِبِ الحرث؛ نظرًا إلى تفريطِ أصحابها، فعاقَبَهم بهذه العقوبةِ، وحكم فيها سُليمانُ بحُكمٍ مُوافِقٍ للصواب؛ بأنَّ أصحابَ الغَنَمِ يَدفَعونَ غَنَمَهم إلى صاحِبِ الحَرْثِ فينتَفِعُ بدَرِّها وصوفِها، ويقومونَ على بستانِ صاحِبِ الحَرثِ حتى يعودَ إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حالِه ترادَّا ورجع كلٌّ منهما بما له، وكان هذا من كمالِ فَهمِه وفِطنتِه عليه السَّلامُ؛ ولهذا قال تعالى: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ أي: فهَّمْناه هذه القضيَّةَ، ولا يدُلُّ ذلك أنَّ داود لم يُفهِّمْه اللهُ في غيرِها . (تفسير السعدي)

قال الشنقيطي : ... فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ قَالُوا : إِنَّ حُكْمَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ فِي الْحَرْثِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ بِوَحْيٍ ، إِلَّا أَنَّ مَا أُوحِيَ إِلَى سُلَيْمَانَ كَانَ نَاسِخًا لِمَا أُوحِيَ إِلَى دَاوُدَ .

وَفِي الْآيَةِ قَرِينَتَانِ عَلَى أَنَّ حُكْمَهُمَا كَانَ بِاجْتِهَادٍ لَا بِوَحْيٍ ، وَأَنَّ سُلَيْمَانَ أَصَابَ فَاسْتَحَقَّ الثَّنَاءَ بِاجْتِهَادِهِ وَإِصَابَتِهِ ، وَأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يُصِبْ فَاسْتَحَقَّ الثَّنَاءَ بِاجْتِهَادِهِ ، وَلَمْ يَسْتَوْجِبْ لَوْمًا وَلَا ذَمًّا بِعَدَمِ إِصَابَتِهِ . كَمَا أَثْنَى عَلَى سُلَيْمَانَ بِالْإِصَابَةِ فِي قَوْلِهِ : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَأَثْنَى عَلَيْهِمَا فِي قَوْلِهِ (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) فَدَلَّ قَوْلُهُ : إِذْ يَحْكُمَانِ عَلَى أَنَّهُمَا حَكَمَا فِيهَا مَعًا كُلٌّ مِنْهُمَا بِحُكْمٍ مُخَالِفٍ لِحُكْمِ الْآخَرِ ، وَلَوْ كَانَ وَحْيًا لَمَا سَاغَ الْخِلَافُ . ثُمَّ قَالَ : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُفْهِمْهَا دَاوُدُ ، وَلَوْ كَانَ حُكْمُهُ فِيهَا بِوَحْيٍ لَكَانَ مُفْهَمًا إِيَّاهَا كَمَا تَرَى . فَقَوْلُهُ (إِذْ يَحْكُمَانِ) مَعَ قَوْلِهِ (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ لَمْ يَكُنْ بِوَحْيٍ بَلْ بِاجْتِهَادٍ ، وَأَصَابَ فِيهِ سُلَيْمَانُ دُونَ دَاوُدَ بِتَفْهِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُ ذَلِكَ .

وَالْقَرِينَةُ الثَّانِيَةُ : هِيَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : فَفَهَّمْنَاهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَهَّمَهُ إِيَّاهَا مِنْ نُصُوصِ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الشَّرْعِ . لَا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيهَا وَحْيًا جَدِيدًا نَاسِخًا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : فَفَهَّمْنَاهَا أَلْيَقُ بِالْأَوَّلِ مِنَ الثَّانِي كَمَا تَرَى . (أضواء) .

وفي هذا فضل الفهم : والفهم منحة من الله ونور يقذفه في قلب من شاء من عباده ، وبه يستطيع الاستنباط من النصوص .

كما قال علي لما سئل ، هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه .

وفي كتاب عمر لأبي موسى : الفهم الفهم فيما أدلي إليك .

قال ابن القيم : فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه في قلبه يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ، ويفهم من النصوص ما لا يفهمه غيره .

(**وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**) أي: وكلًّا مِن داودَ وسُليمانَ آتينا نُبُوَّةً، وعِلمًا بدينِ اللهِ وأحكامِه .

وهذا ثناء من الله تعالى على داود وسليمان عليه السلام والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيباً في حكمه.

أي: وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا (حُكْماً) أي: نبوة وإصابة في القول والعمل (وَعِلْماً) أي: فقها في الدين، وفهما سليما للأمور.

وجملة (وكلاً آتينا حكماً وعلماً) تذييل للاحتراس لدفع توهم أن حكم داوود كان خطأ أو جوراً وإنما كان حكم سليمان أصوب.

قال الشوكاني : ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً ، أي وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً ، لا سليمان وحده .

وهذا كثير في الكتاب والسنة.

قوله تعالى (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى).

وقوله تعالى في هذه الآية (... وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا).

وقوله تعالى (لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى) .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ) .

وقد حدثت قصة أخرى تدل على فهم سليمان :

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا؛ جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: "إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ"، وَقَالَتِ الأُخْرَى: "إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ". فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام؛ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى. فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، فَأَخْبَرَتَاهُ؛ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: "لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا"، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى) رواه البخاري ومسلم.

فكُلٌّ مِنهما ادَّعَتْ أنه ابْنُها، فحَكَمَ داودُ عليه السلام لِلكُبْرى، ثم تَحاكَمَتَا إلى سُليمانَ عليه السلام؛ فأصابَ حُكمُه الحقَّ في القَضِيَّةِ، وكُلٌّ منهما مَأْجورٌ على اجتهادِه .

قال القرطبي : لقد أبعد من قال : إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى ؛ لأن الكبر والصغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك.

وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع.

والذي ينبغي أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب اقتضى عنده ترجيح قولها.

ولم يذكر في الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ؛ فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان.

وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا الحديث ، وهو الذي تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلاف الشرائع فيها.

مِنْ فوائِدِ الحديث:

بَيانُ فَضْلِ سُليمانَ ﷺ، وبَيانُ ما آتاه اللهُ تعالى مِنْ قُوَّةِ الفَهْمِ، والقُدْرَةِ على استخراج الحُكْمِ الصَّواب؛ فيما عُرِضَ عليه من قضايا مُتَشابِهَةٍ. قال ابنُ الجَوزي رحمه الله: (أَمَّا دَاوُد ﷺ: فَرَأى اسْتِواءَهما فِي الْيَد، فَقَدَّمَ الْكُبْرى لِأَجْلِ السِّنِّ، وَأَمَّا سُلَيْمَان ﷺ: فَرَأى الْأَمْرَ مُحْتَمِلًا، فاسْتَنْبَطَ فَأَحْسَنَ؛ فَكَانَ أَحَدَّ فِطْنَةً مِنْ دَاوُد، وَكِلَاهُمَا حَكَمَ بالاجْتِهَادِ؛ لِأَنَّهُ لَو كَانَ دَاوُدُ حَكَمَ بِالنَّصِّ؛ لَمْ يَسَعْ سُلَيْمَانُ أَنْ يَحْكُمَ بِخِلَافِهِ، وَلَو كَانَ مَا حَكَمَ بِهِ نَصًّا؛ لَمْ يَخْفَ على دَاوُدَ).

ومن الفوائد: اسْتِعْمالُ الاسْتِدْلالِ بِالقَرائِنِ والأَمَاراتِ؛ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ في القضايا المتنازَعِ فيها، عِند عَدَمِ الدَّليل. قال عليٌّ القاري رحمه الله: (اعْلَمْ أَنَّ قَضَاءَهُمَا حَقٌّ؛ لِكَوْنِهِمَا مُجْتَهِدَيْنِ. وَمُسْتَنَدُ قَضَائِهِمَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ: "هِيَ الْقَرِينَةُ"، لَكِنَّ الْقَرِينَةَ الَّتِي قَضَى بِهَا "سُلَيْمَانُ" أَقْوَى مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرِ).

ومن الفوائد: مَشْرُوعِيَّةُ الحِيَلِ، وإِظْهارِ فِعْلِ مَا لا يُرِيدُه لِلوصولِ لِلحقيقة. فسليمانُ ﷺ قال: «ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا» فإنه لم يَقُلْ ذلك لِيَفْعَلَه؛ وإنما لِيَعْرِفَ الأُمَّ الحقيقيّةَ، حيثُ إنَّ شَفَقَتَها سَتَحْمِلُها عَلَى عَدَمِ شَقِّه؛ بِخِلافِ الأُخرى، وكان الأمْرُ كما أرادَه. فلِلْحاكِمِ أنْ يستعمِلَ الحِيَلَ فِي استخراجِ الحقِّ بالتَّهديدِ، والتَّخويفِ، وإنْ لمْ يفعلْ ذلك، وهذا يَعْتَمِدُ عَلَى الفَهْمِ، والفِطْنَةِ، فقد يَصِلُ الفَطِنُ – بِلَطِيفِ فِطْنَتِه – إلى ما لا يَصْبُ إليه غيرُه، فهذا عطاءٌ، وفَضْلٌ، ومِنَّةٌ مِنْ الله تعالى (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

قال النّووي رحمه الله: (وَأَمَّا "سُلَيْمَانُ" فَتَوَصَّلَ بِطَرِيقٍ مِنَ الْحِيلَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْقَضِيَّةِ، فَأَوْهَمَهُمَا أَنَّهُ يُرِيدُ قَطْعَهُ؛ لِيَعْرِفَ مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهَا قَطْعُهُ، فَتَكُونُ هِيَ أُمَّهُ، فَلَمَّا أَرَادَتِ "الْكُبْرَى" قَطْعَهُ؛ عَرَفَ أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمَّهُ، فَلَمَّا قَالَتِ "الصُّغْرَى" مَا قَالَتْ؛ عَرَفَ أَنَّهَا أُمُّهُ. وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ أَنَّهُ يَقْطَعُهُ حَقِيقَةً، وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِبَارَ شَفَقَتِهِمَا؛ لِتَتَمَيَّزَ لَهُ الْأُمُّ).

ومن الفوائد: أَنَّ "الأُمَّ الحقيقيةَ" تَتَنازَلُ عن وَلَدِها، وثَمرةِ فُؤادِها، وأَعَزِّ ما تَمْلِكُ؛ لِأَجْلِ سَلامَتِه، ولأنها تُحِبُّه، وهكذا الذي يُحِبُّ دِينَه، وبَلَدَه المسلِمَ؛ يتنازل أحيانًا عن حَقِّهِ؛ لِأَجْلِ سلامةِ البلدِ وأهلِه مِنَ الاقْتِتَالِ، والفِتَنِ، والدَّمَارِ، والخَرَابِ.

(**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ**) أي : جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبح .

وَمَا ذَكَرَهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ تَسْخِيرِهِ الطَّيْرَ وَالْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَ نَبِيِّهِ دَاوُدَ بَيَّنَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ) .

وَقَوْلِهِ (أَوِّبِي مَعَهُ) أَيْ : رَجِّعِي مَعَهُ التَّسْبِيحَ . (وَالطَّيْرَ) أَيْ : وَنَادَيْنَا الطَّيْرَ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنْ تَرْجِيعِ التَّسْبِيحِ مَعَهُ . وَقَوْلُ مَنْ قَالَ (أَوِّبِي مَعَهُ) أَيْ : سِيرِي مَعَهُ ، وَأَنَّ التَّأْوِيبَ سَيْرُ النَّهَارِ – سَاقِطٌ كَمَا تَرَى .

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّاب).

قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور ، فكان إذا ترنم بها ، تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً وانما قدم ذكر الجبال على الطير ، لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب ، وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد .

قال الشنقيطي : التحقيقُ: أنَّ تَسبيحَ الجبالِ والطَّيرِ –مع داودَ– المذكورَ تسبيحٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا يجعَلُ لها إدراكاتٍ تُسَبِّحُ بها، يعلَمُها هو جلَّ وعلا، ونحن لا نعلمُها، كما قال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) وقال تعالى (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (أَنَّ الْجِذْعَ الَّذِي كَانَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا انْتَقَلَ عَنْهُ بِالْخُطْبَةِ إِلَى الْمِنْبَرِ سُمِعَ لَهُ حَنِينٌ) .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ) وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَالْقَاعِدَةُ الْمُقَرَّرَةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا الْمُتَبَادِرِ مِنْهَا إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

وَالتَّسْبِيحُ فِي اللُّغَةِ : الْإِبْعَادُ عَنِ السُّوءِ ، وَفِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ : تَنْزِيهُ اللَّهِ – جَلَّ وَعَلَا – عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ .

قال ابن جزي : وقدم الجبال على الطير لأن تسبيحها أغرب إذ هي جماد .

(**وَكُنَّا فَاعِلِينَ**) أي : وكنَّا قد قضَينا أنَّا فاعِلو ذلك، ومُسَخِّرو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه السلام .

أي : وكنا قادرين على فعل ذلك .

(**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ**) أي: وعلَّمْنا داودَ كيفيَّةَ صِناعةِ الدُّروعِ لكم؛ لِتقيَكم في القتالِ مِن سلاحِ أعدائِكم .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) .

قال الشوكاني : اللبوس عند العرب : السلاح كله درعاً كان أو جوشناً ، أو سيفاً ، أو رمحاً والمراد في الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ، كالركوب والحلوب .

قال السعدي: علَّم الله داودَ عليه السلام صنعةَ الدُّروعِ، فهو أوَّلُ مَن صنَعَها وعُلِّمَها، وسَرَت صناعتُه إلى مَن بَعدَه، فألانَ اللهُ له الحديدَ، وعَلَّمَه كيف يَسرُدُها .

قال السعدي : يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون – كما قاله المفسرون–: إن الله ألان له الحديد، حتى كان يعمله كالعجين والطين، من دون إذابة له على النار .

ويحتمل أن تعليم الله له، على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن، لإذابتها، وهذا هو الظاهر، لأن الله امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام، متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون، لا دليل عليه إلا قوله: (أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك.

(**لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ**) أي : لتقيكم في القتال شر الأعداء .

لأن الدرع تقي صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

والبأس يطلق في القرآن على (٣) إطلاقات:

بمعنى العذاب: كقوله تعالى (لينذر بأساً شديداً من لدنه) وقوله (فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا).

وبمعنى القتال والمعركة: كقوله تعالى (وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً).

وبمعنى: الفقر والضيق: كقوله تعالى (مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ).

وفي قوله تعالى (لِتُحْصِنَكُمْ) قراءاتٌ:

قراءةُ لِتُحْصِنَكُمْ بتاءٍ مَضمومةٍ، على التأنيثِ، أي: لِتُحصِنَكم هذه الصَّنعةُ .

وقراءةُ لِنُحْصِنَكُم بنونٍ مضمومةٍ، على أنَّ اللهَ تعالى يخبِرُ عن نَفسِه، أي: لِنُحصِنَكم نحنُ من بأسِكم بواسطةِ هذه الدُّروعِ .

وقراءةُ لِيُحْصِنَكُم بياءٍ مَضمومةٍ، على التذكيرِ، أي: لِيُحصِنَكم اللهُ تعالى، أو: ليحصِنَكم هذا اللَّبوس .

(**فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**) استفهام يراد به الأمر ، أي : اشكروا الله على ما أنعم به عليكم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) الظَّاهِرُ فِيهِ أَنَّ صِيغَةَ الِاسْتِفْهَامِ هُنَا يُرَادُ بِهَا الْأَمْرُ ، وَمِنْ إِطْلَاقِ الِاسْتِفْهَامِ بِمَعْنَى الْأَمْرِ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) أَيِ : انْتَهُوا .

وَلِذَا قَالَ عُمَرُ ﷺ: انْتَهَيْنَا يَا رَبُّ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ) أَيْ : أَسْلِمُوا .

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي فَنِّ الْمَعَانِي أَنَّ فِي الْمَعَانِي الَّتِي تُؤَدَّى بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ : الْأَمْرُ ، كَمَا ذَكَرْنَا .

وكيفية الشكر العبد : استعمالها في طاعة الله .

فالشكر: هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب، وثناء باللسان، وطاعة بالأركان.

بالقلب، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) وحديث الباب.

وفي ذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة الرجل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله.

وَشُكْرُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ : هُوَ أَنْ يُثِيبَهُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ مِنْ عَمَلِهِ الْقَلِيلِ .

الفوائد :

١-في هذا تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أفضَلُ الكَمالاتِ وأعظَمُها؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى قَدَّمَ ذِكرَه هاهنا على سائرِ النِّعَمِ الجليلةِ، مِثلُ: تَسخيرِ الجبالِ والطيرِ، والريحِ والجِنِّ، وإذا كان العِلمُ مُقَدَّمًا على أمثالِ هذه الأشياءِ، فما ظَنُّك بغَيرِها ؟!

٢-في هذا دليلٌ على أنَّ الحاكِمَ قد يُصيبُ الحَقَّ والصَّوابَ، وقد يُخطِئُ ذلك، وليس بمَلومٍ إذا أخطأ مع بَذْلِ اجتِهادِه .

٣-فيه دَلالةٌ على أنَّ النَّاسَ متفاوِتونَ في الأفهامِ، ولو كان الفَهمُ متماثِلًا لَمَا خُصَّ به سُلَيمانُ .

٤-فيهدَلالةٌ على أهميَّةِ الفَهمِ، وأنَّ العِلمَ ليس كلَّ شَي .

٥- أنَّ الوصولَ إلى الحقِّ لا يُقاسُ بِمِقْدَارِ السِّنِّ، ويَجوزُ لِلْعالِمِ أَنْ يُخَالِفَ غيرَه مِنَ العُلماء؛ وإنْ كانوا أَسَنَّ منه، وأَفْضَلَ، وأَعْلَمَ؛ إذا رأى الحقَّ في خِلَافِ قولِهِم.

قال ابنُ بَطَّالٍ رحمه الله: وفيه: أنه جَائِزٌ للعالِمِ مُخالَفَةَ غَيرِه من العلماء، وإنْ كانوا أَسَنَّ منه وأفْضَلَ؛ إذا رأى الحقَّ في خِلافِ قَولِهِم. واللهُ تعالى أثنى على "سُليمانَ" بِعِلْمِه، وعَذَرَ "داودَ" باجْتِهادِه، ولمْ يُخْلِهِ مِنَ العِلْمِ؛ فقال سبحانه (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا).

٦-دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور .

ومنعه بعضهم .ولا مسند له .

لأن قضاء داود لو كان بوحي لما أوثر قضاء ابنه سليمان عليه .

ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) فعاتبه على ما وقع منه . ولو كان ذلك بالوحي لم يعاتبه .

ومنه ما صح عنه صلوات الله عليه من قوله (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدْي) ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحي ، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة . وأيضاً . (القاسمي) .

٧-في قَولِه تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ...) دَلالةٌ على أنَّ العَمَلَ والمهنةَ ليستا نَقصًا؛ لأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا يُمارِسونَها .

والآيةُ أصلٌ في اتِّخاذِ الصَّنائعِ والأسبابِ، وهو قَولُ أهل العُقولِ والألبابِ، لا قَولُ الجَهَلةِ الأغبياءِ القائلينَ بأنَّ ذلك إنما شُرِعَ للضُّعَفاءِ؛ فالسَّبَبُ سُنَّةُ اللهِ في خَلقِه، فمَن طعَنَ في ذلك فقد طَعَن في الكِتابِ والسُّنَّة، ونَسَب مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعفِ وعَدَمِ المنَّةِ، فالصَّنعةُ يَكُفُّ بها الإنسانُ نَفسَه عن النَّاسِ، ويَدفَعُ بها عن نَفسِه الضَّرَرَ والباسَ

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)) .

[الأنبياء : ٨١ – ٨٢] .

=============

قال أبو حيان : ولما ذكر تعالى ما خص به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خص به ابنه سليمان عليه السلام .

(**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً**) أَيْ : وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ .

وعاصفة : أَيْ : شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ . يُقَالُ : عَصَفَتِ الرِّيحُ أَيِ : اشْتَدَّتْ .

(**تَجْرِي بِأَمْرِهِ**) أَيْ : تُطِيعُهُ وَتَجْرِي إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي يَأْمُرُهَا بِهِ .

وَمَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ لِسُلَيْمَانَ ، وَأَنَّهَا تَجْرِي بِأَمْرِهِ بَيَّنَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَزَادَ بَيَانَ قَدْرِ سُرْعَتِهَا ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) .

أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وسيرها من الصباح إلى الظهر ، مسيرة شهر للسائر المجد ، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر ، قال المفسرون : سخر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات ، لحمله مع جنده فتنتقل به من بلد إلى بلد ، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد وقوله تعالى (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) .

فإن قيل : إِنَّ اللَّهَ وَصَفَ الرِّيحَ الْمَذْكُورَةَ هُنَا فِي سُورَةِ «الْأَنْبِيَاءِ» بِأَنَّهَا عَاصِفَةٌ ، أَيْ : شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ ، وَوَصَفَهَا فِي سُورَةِ «ص» بِأَنَّهَا تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ، وَالْعَاصِفَةُ غَيْرُ الَّتِي تَجْرِي رُخَاءً .

والجواب : أَنَّهَا عَاصِفَةٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ، وَلَيِّنَةٌ رُخَاءٌ فِي بَعْضِهَا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ، كَأَنْ تَعْصِفَ وَيَشْتَدَّ هُبُوبُهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ حَتَّى تَرْفَعَ الْبِسَاطَ الَّذِي عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، فَإِذَا ارْتَفَعَ سَارَتْ بِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ .

قال البقاعي : قال (عاصفة) أي شديدة الهبوب، هذا باعتبار عملها، ووصفت بالرخاء باعتبار لطفها بهم فلا يجدون لها مشقة.

وقال النسفي : (عَاصِفَةً) حال أي شديدة الهبوب ووصفت في موضع آخر بالرخاء لأنها تجري باختياره، وكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم إرادته .

وقال ابن عاشور : ووصفها في سورة ص بأنها (رُخاء) في قوله تعالى (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) والرخاء : الليلة المناسبة لسير الفُلك.

وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة وإذا أراد اللين سارت رُخاء ، والمقام قرينة على أن المراد المواتاه لإرادة سليمان كما دل عليه قوله تعالى (تجري بأمره) في الآيتين المشعر باختلاف مقصد سليمان منها كما إذا كان هو راكباً في البحر فإنه يريدها رُخاء لئلا تزعجه وإذا أصدرت مملكتُه بضاعة أو اجتلبتها سارت عاصفة وهذا بيّن بالتأمل.

فإن قيل : هنا سُورَةِ «الْأَنْبِيَاءِ» خَصَّ جَرْيَهَا بِهِ بِكَوْنِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ، وَفِي سُورَةِ «ص» قَالَ (تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) وَقَوْلِهِ : حَيْثُ أَصَابَ يَدُلُّ عَلَى التَّعْمِيمِ فِي الْأَمْكِنَةِ الَّتِي يُرِيدُ الذَّهَابَ إِلَيْهَا عَلَى الرِّيحِ . فَقَوْلُهُ : حَيْثُ أَصَابَ أَيْ : حَيْثُ أَرَادَ .

والجواب : أن قَوْلَهُ : حَيْثُ أَصَابَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَجْرِي بِأَمْرِهِ حَيْثُ أَرَادَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ . وَقَوْلِهِ (تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) لِأَنَّ مَسْكَنَهُ فِيهَا وَهِيَ الشَّامُ ، فَتَرُدُّهُ إِلَى الشَّامِ . وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ : حَيْثُ أَصَابَ فِي حَالَةِ الذَّهَابِ . وَقَوْلِهِ : (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) فِي حَالَةِ الْإِيَابِ إِلَى مَحَلِّ السُّكْنَى . فَانْفَكَّتِ الْجِهَةُ فَزَالَ الْإِشْكَالُ .

قال ابن الجوزي : والمعنى : أنها كانت تسير به إلى حيث شاء ، ثم تعود به إلى منزله بالشام.

وفي هذه الآية : أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، لأن كثيراً من المفسرين جعلوا تسخير الريح لسليمان تنقله حيث يشاء، عوضاً عن الخيل التي أتلفها غضباً لله حينما ألهته عن ذكر الله .

كما قال تعالى (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) .

(فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) أي آثرت حب الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله ، قال المفسرون : عرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه ، فأجريت بين يديه عشيا فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص حتى غابت الشمس (حتى توارت بالحجاب) أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار (ردوها عل) أي قال سليمان ردوا هذه الخيل علي (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقربا إلى الله، لتكون طعاما للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله ، قال الحسن : لما ردت عليه قال : لا والله لا تشغليني عن طاعة ربي ، ثم أمر بها فعقرت ، وكذلك قال السدي ، وأما قول من قال : إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف ، لأنه لا يتصور من نبي أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا ، والنص صريح (عن ذكر ربى) ((روي عن ابن عباس أنه قال : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها وتكرمة) وهذا القول اختاره ابن جرير ، والأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة ، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي اسرع من الخيل ، وما نحرها لإتلاف المال ، لانما لتكون طعاماً للمساكين .

(**إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**) يعني أرض الشام .

(**وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**) أي : بكل شيء عملنا عالمين بتدبيره.

(**وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ**) أَيْ : في الماء يستخرجون اللئالئ والجواهر وَغَيْرَ ذَلِكَ .

قال ابن الجوزي : قال المفسرون : كانوا يغوصون في البحر ، فيستخرجون الجواهر .

وقال القرطبي : أي يستخرجون له الجواهر من البحر ، والغَوْص النزول تحت الماء ، وقد غاص في الماء ، والهاجم على الشيء غائص ، والغوّاص الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ ، وفعله الغِيَاصة.

قال ابن عاشور : هذا ذكر معجزة وكرامة لسليمان ، وهي أن سخر إليه من القُوى المجردة من طوائف الجنّ والشياطين التي تتأتّى لها معرفة الأعمال العظيمة من غوص البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ومن أعمال أخرى أجملت في قوله تعالى (ويعملون عملاً دون ذلك) .

وفصّل بعضها في آيات أخرى كقوله تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات) .

(**وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ**) أي : سِوَى ذَلِكَ الْغَوْصِ الْمَذْكُورِ ، أَيْ : كَبِنَاءِ الْمَدَائِنِ ، وَالْقُصُورِ ، وَعَمَلِ الْمَحَارِيبِ ، وَالتَّمَاثِيلِ ، وَالْجِفَانِ ، وَالْقُدُورِ الرَّاسِيَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنِ اخْتِرَاعِ الصَّنَائِعِ الْعَجِيبَةِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفاد) .

وَقَوْلِهِ فِي الْعَمَلِ غَيْرِ الْغَوْصِ (وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ) .

وَقَوْلِهِ (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) .

وَكَقَوْلِهِ فِي حِفْظِهِمْ مِنْ أَنْ يَزِيغُوا عَنْ أَمْرِهِ (وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) .

(**وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ**) أَيْ : يَحْرُسُهُ اللَّهُ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِسُوءٍ، بَلْ كُلٌّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، بل هو يحكم فِيهِمْ إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ.

قال ابن الجوزي : (وَكُنَّا لهم حافظين } أن يُفسدوا ما عملوا ، وقال غيره : أن يخرجوا عن أمره.

وقال ابن عاشور : ومعنى (وكنا لهم حافظين) أن الله بقدرته سخرهم لسليمان ومنعهم عن أن ينفلتوا عنه أو أن يعصوه ، وجعلهم يعملون في خفاء ولا يؤذوا أحداً من الناس ؛ فجمع الله بحكمته بين تسخيرهم لسليمان وعلمه كيف يَحكمهم ويستخدمهم ويطوعهم ، وجعلهم منقادين له وقائمين بخدمته دون عناء له ، وحال دونَهم ودونَ الناس لئلا يؤذوهم.

ولما توفّي سليمان لم يسخر الله الجنّ لغيره استجابة لدعوته إذ قال (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) .

ولما مكّن الله النبي محمداً ﷺ من الجنيّ الذي كاد أن يفسد عليه صلاته وهَمَّ بأن يربطه ، ذَكَر دعوة سليمان فأطلقه فجمع الله له بين التمكين من الجنّ وبين تحقيق رغبة سليمان.

الفوائد :

١. الملك العظيم الذي أعطاه الله سليمان .
٢. فضل الله العظيم على سليمان .
٣. بيان قدرة الله وكمال سلطانه ، حيث سخر الريح وذللها .
٤. أن الله قد يسخّر شيئاً من الكون لعبد من عباده .
٥. تسخير الشياطين لسليمان .
٦. بيان ما بسط الله لسليمان من السلطان ، حيث كانت الشياطين مسخرة له .
٧. أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .
٨. كمال ملك سليمان وسلطانه وتنظيمه لعمله وعماله ، حيث جعل لكل طائفة ما يختص بها من العمل .

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)) .
[الأنبياء : ٨٣-٨٤] .
==============

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) أي : واذكر- أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب- عبدنا أيوب عليه السلام وقت أن نادى ربه، وتضرع إليه بقوله: يا رب أني أصابني ما أصابني من الضر والتعب، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها.

قال ابن عاشور : كونُ الله تعالى أرحم الراحمين لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحِم غيرَه فإما أن يرحمه طلباً للثناء في الدنيا أو للثواب في الآخرة أو دفعاً للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له فلم يخل من قصد نفع لنفسه ، وأما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية.

ملخص القصة :

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم:

إن أيوب عليه السلام كان رجلًا كثير المال بأنواعه المتعددة، من الأراضي الواسعة، والأنعام والمواشي ، فابتلاه الله بفقد ذلك كله، وابتلي بأنواع البلايا في جسده، حيث لم يبق موضع في جسده لم يسلم من الأذى سوى قلبه ولسانه، وكان يذكر الله بهما، ويسبح ليلًا ونهارًا، وصباحًا ومساءً، حتى عافه الجليس، واستوحش منه الأنيس، وعافه القريب والبعيد، ورمي في مزبلة خارج بلده، ولم يبق عنده سوى زوجته، كانت تحفظ حقه، وقديم إحسانه، وشفقته عليها، وكانت تعمل بالأجر عند الناس، وتأتيه بالطعام، مع صبرها على فراق المال والولد، ومرض الزوج بعد النعمة، والحرمة التي كانت فيها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكما تقدم كانت تخدم الناس بالأجر، وتطعم أيوب عليه السلام، ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفًا من أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحدًا يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسًا، فلما كان من الغد لم تجد أحدًا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأتته به فأنكره، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقًا قال في دعائه: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] فجاء الفرج من الله: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢] أي اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به، فأنبع الله عينًا باردة الماء، وأمره أن يغتسل فيها، ويشرب من مائها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم الذي كان في جسده ظاهرًا وباطنًا ، وأبدله الله بعد ذلك صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالًا تامًا ، ومالًا كثيرًا ، حتى صب له من المال مطرًا عظيمًا ، جراد من ذهب .

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال (بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه تبارك وتعالى: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك و لكن لا غنى بي عن بركتك) .

عن أَنس بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال (إنَّ أيوبَ نبيَّ الله ﷺ لبثَ في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد؛ إلّا رجلين من إخوانِه [كانا من أخص إخوانه] كانا يغدوان إِليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أَذنبَ أَيوب ذنبًا ما أَذنبه أَحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟! قال: منذ ثمان عشرةَ سنةً لم يرحمه الله فيكشفَ ما به، فلمّا راح إِليه؛ لم يصبر

الرَّجل حتّى ذكر ذلك له، فقال أَيوب: لا أَدري ما تقول؟! غير أنَّ اللهَ يعلم أَنّي كنت أَمُرُّ على الرَّجلين يتنازعان فيذكران الله، فأَرجع إلى بيتي، فأُكَفِّرُ عنهما؛ كراهية أَن يذكرَ الله إلّا في حقّ.

قال: وكانَ يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجتَه؛ أَمسكت امرأته بيده [حتّى يبلغ] فلمّا كان ذات يوم أَبطأَ عليها، فأَوحى الله إلى أَيوب في مكانِه: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) فاستَبْطأته، فبلغته، فأَقبل عليها قد أَذهب الله ما به من البلاء، فهو أَحسن ما كان، فلمّا رأته، قالت: أَي! بارك الله فيك! هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلى؟ والله -على ذلك- ما رأيتُ أَحدًا كانَ أَشبه به منك إذ كانَ صحيحًا! قال: فإِنّي أنا هو، وكان له أَنْدَران: أندر القمح، وأَندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلمّا كانت إحداهما على أَندر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتّى فاضت، وأَفرغت الأُخرى على أَنْدر الشعير الورِقَ حتّى فاضت). رواه ابن حبان

(**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) دعاءه وتضرعه .

(**فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ**) أي : فأزَلْنا ما حلَّ به مِن ضَرَرٍ وبَلاءٍ .

والضُّرُّ الَّذِي مَسَّ أَيُّوبَ ، وَنَادَى رَبَّهُ لِيَكْشِفَهُ عَنْهُ كَانَ بَلَاءً أَصَابَهُ فِي بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ . وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِذْهَابَ الضُّرِّ عَنْهُ أَمَرَهُ أَنْ يَرْكُضَ بِرِجْلِهِ فَفَعَلَ ، فَنَبَعَتْ لَهُ عَيْنُ مَاءٍ ، فَاغْتَسَلَ مِنْهَا ، فَزَالَ كُلُّ مَا بِظَاهِرِ بَدَنِهِ مِنَ الضُّرِّ ، وَشَرِبَ مِنْهَا فَزَالَ كُلُّ مَا بِبَاطِنِهِ كَمَا أَشَارَ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) .

(**اركض برجلك**) أي وقلنا له اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت له عين ماء صافية (هذا مغتسل بارد وشراب) أي وقلنا له هذا ماء تغتسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده، وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده، قال أبو حيان: [هذا مغتسل] أي ما يغتسل به [وشراب] أي ما يشرب منه، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من أحداهما واغتسل من الأخرى فشفي .

(**وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**) أي : آتيناه في الدنيا مثل أهله مع زيادة مثل آخر .

قال الزجّاج: أكثَرُ التفاسير أنَّ الله جلَّ ثناؤه أحيا مَن مات مِن بنيه وبناتِه، ورزقه مِثلَهم مِن الوَلَدِ .

وقال السَّمعاني: (قولُه: وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، والحسنُ: ردَّ إليه أهلَه وأولادَه بأعيانِهم، وهذا هو القَولُ المعروفُ، وظاهِرُ القرآنِ يدُلُّ عليه .

وقال البقاعي : (وءاتيناه أهله) أي أولاده وما تبعهم من حشمه، أحييناهم له بعد أن كانوا ماتوا (ومثلهم) أي وأوجدنا له مثلهم في الدنيا .

قال الرازي : وبين الله تعالى أنه آتاه أهله ويدخل فيه من ينسب إليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان :

أحدهما : وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب ﷺ أن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم.

والثاني : روى الليث ﷺ، قال : أرسل مجاهد إلى عكرمة وسأله عن الآية فقال : قيل له إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا ، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا.

فقال : يكونون لي في الآخرة وأوتي مثلهم في الدنيا.

والقول الأول أولى لأن قوله (وآتيناه أهله) يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم في الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضاً.

وقال القرطبي : قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب ﷺ: قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة وإن شئت آتيناكهم في الدنيا.

قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم في الدنيا.

قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح.

قلت : وحكاه المهدوي عن ابن عباس.

وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا امرأته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم.

وعن ابن عباس أيضاً : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم.

وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم.

قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي نشروا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات.

قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية.

قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه في سورة "البقرة" في قصة (الذين خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموت).

وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أُحيوا ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم.

وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ) في الآخرة (وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ) في الدنيا. (تفسير القرطبي)

وقال أبو حيان : الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع عليه من شتت منهم .

(**رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا**) أي : فعلنا به ذلك رحمة من الله به .

قال ابن عاشور : وصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويهاً بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل.

وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدْوَةً لِئَلَّا يَظُنَّ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ اللهِ وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يشاء ، وله الحكمة في ذلك .

قال ابن جرير: قوله: (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) يقولُ: وتذكِرةً للعابدينَ ربَّهم فعلْنا ذلك به؛ لِيَعتَبِروا به ويعلَموا أنَّ الله قد يبتلي أولياءَه ومَن أحَبَّ مِن عبادِه في الدُّنيا بضُروبٍ مِنَ البلاءِ في نَفسِه وأهلِه ومالِه، مِن غَيرِ هوانٍ به عليه، ولكِنْ اختبارًا منه له؛ لِيَبلُغَ بصَبرِه عليه واحتِسابِه إيَّاه وحُسنِ يَقينِه، مَنزِلَتَه التي أعَدَّها له تبارك وتعالى مِنَ الكرامةِ عندَه .

وقال القرطبي : (وذكرى لِلْعَابِدِينَ) أي وتذكيراً للعباد ؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب ، فيكون هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة ، واحتمال الضرر.

فائدة :

قال الشنقيطي : فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ قَوْلَ أَيُّوبَ الْمَذْكُورَ فِي «الْأَنْبِيَاءِ» فِي قَوْلِهِ : إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَفِي «ص» فِي قَوْلِهِ : إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ضَجِرَ مِنَ الْمَرَضِ فَشَكَا مِنْهُ ، مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى عَنْهُ (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ صَبْرِهِ ؟

وَالْجَوَابُ أَنَّ مَا صَدَرَ مِنْ أَيُّوبَ دُعَاءٌ وَإِظْهَارُ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى رَبِّهِ ، لَا شَكْوَى وَلَا جَزَعٌ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : وَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) جزَعًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا بَلْ كَانَ ذَلِكَ دُعَاءً مِنْهُ . وَالْجَزَعُ فِي الشَّكْوَى إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالدُّعَاءُ لَا يُنَافِي الرِّضَا .

فائدة : ١

ابتلاء الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام، وأن هذا البلاء لم يزده إلا صبرًا، واحتسابًا، وحمدًا، وشكرًا، حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل بما حصل له من أنواع البلاء .

فائدة :

يبتلى الإنسان على قدر دينه .

عن سعد قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة) .

فائدة :

أنَّ الصبر على البلاء من أخلاق الأنبياء والصالحين، وعاقِبتُه حَسَنة، وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر، وأنَّ الأنبياء هم أشد الناس ابتلاءً وصبراً على البلاء .

فائدة :

أن يقال: يا أهل البلاء، يا من ابتليتم في أموالكم، أو أولادكم، أو أنفسكم اصبروا، واحتسبوا، فإن العوض من الله، قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون) .

قال ابن كثير: "هذه تذكرة لمن ابتلي في جسده، أو ماله، أو ولده، فله أسوة بنبي الله أيوب، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

فائدة :

أن من أصيب بمصيبة فصبر واحتسب واسترجع عوضه الله خيرًا مما فاته، كما حصل لأيوب عليه السلام، روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة – رضي الله عنها –: أن النبي ﷺ قال: "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها إلا أخلق الله له خيرًا منها" قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟ ثم عزم الله لي فقلتها، قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ .

فائدة :

الدعاء أمره عظيم وشأنه جليل، فعلى العبد أن يتوجه إلى ربه في الضراء، وأن يتضرع إليه ويتوسل، ولا يقنط، ولا ييأس، فالدعاء عبادة عظيمة، فيا أيها المبتلَى، توجه إلى ربك في ساعات الإجابة في الثلث الأخير من الليل، وفي السجود، وبين الأذان والإقامة، وألحَّ على ربك بالسؤال؛ فإن الله يحب من عبده الإلحاح والإكثار من الدعاء، فإن ربك قريب سميع الدعاء.

قال ابن القيم : جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له والإقرار له بصفة الرحمة وإنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وهو فقره ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره. أ هـ

فائدة :

إن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له ، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

فائدة :

أنَّ أنبياءَ اللهِ بَشَرٌ يَجري عليهم من الأعراضِ البَشريَّةِ ما يَجري على غيرِهم، كالجُوعِ والعَطشِ والمرضِ العادي الذي لا يُؤدِّي إلى نَقْصٍ أو تنفيرٍ منهم .

فائدة

أنَّ المرأة الصالحة هي التي تُسعِد زوجها وتقف معه عند اشتداد المحن والبلايا، فلا تتركه إذا مرض، ولا تُعيره إذا افتقر.

(**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)**) .

[الأنبياء : ٨٥-٨٦] .

==============

(**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ**) أما إِسْمَاعِيلُ فَالْمُرَادُ بِهِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَكذا إِدْرِيسُ عليه السلام، وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ، فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا، وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ .

قال الرازي : قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً .

وقال الحسن والأكثرون إنه من الأنبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه :

أحدها : أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقباً وأن يكون اسماً ، والأقرب أن يكون مفيداً ، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب.

وثانيها : أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسمعيل وإدريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته.

وثالثها : أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي.

وقال أبو حيان : قَالَ الْأَكْثَرُونَ: هُوَ نَبِيٌّ .

قال ابن عاشور : جُمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لاشتراكهم في خصيصية الصبر كما أشار إليه قوله تعالى (كل من الصابرين) جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب.

تنبيه :

وأما ما رواه الترمذي، وأحمد عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (كَانَ الكِفْلُ مِنْ بني إسرائيل لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ ، أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ أَأَكْرَهْتُكِ؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ قَطُّ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا الحَاجَةُ ، فَقَالَ: تَفْعَلِينَ أَنْتِ هَذَا وَمَا فَعَلْتِهِ ؟ اذْهَبِي فَهِيَ لَكِ ، وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَعْصِي اللَّهَ بَعْدَهَا أَبَدًا، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِلْكِفْلِ) .

فهو حديث ضعيف .

وعلى فرض صحته : فليس هذا هو ذو الكفل المذكور في القرآن .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ... - فذكر هذا الحديث - فَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا، وَفِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ ... وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظًا فَلَيْسَ هُوَ ذَا الْكِفْلِ . وَإِنَّمَا لَفْظُ الْحَدِيثِ "الْكِفْلُ" مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ؛ فَهُوَ رَجُلٌ آخَرُ غَيْرُ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَاب . (البداية والنهاية)

وأما القبر المنسوب إلى ذي الكفل ببلاد العراق: فهذا لا يعلم له أصل صحيح، ولا ذكر أحد من أهل العلم له أصلاً، ولا سنداً؛ وإنما ذلك كله من عمل الجهلة الذين يفتنون بأصحاب القبور، ويتوسلون بهم إلى ربهم، وربما عبدوهم من دون الله، فيسألونهم ويستغيثون بهم وينذرون لهم .

(**كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ**) على ما ابتليناه به ، فآتيناهم ثواب الصابرين .

قال الرازي : أي على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الأذى في نصرة دينه.

وقال القاسمي : أي على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى، ففيهم أعظم أسوة.

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا) في النبوة ، أو الجنة .

(**إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ**) الذين قاموا بأوامر الله حق القيام ، واجتنبوا ما نهى الله عنه ، وأخلصوا دينهم لله .

فائدة :

قال ابن الجوزي : إن قيل : أين الصبر ، وهذا لفظ الشكوى؟

فالجواب : أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ، وإنما المذموم الشكوى إلى الخَلْق ، ألم تسمع قول يعقوب : (إنما أشكو بَثّي وحُزْني إلى الله) [يوسف : ٨٦].

قال سفيان بن عيينة : وكذلك من شكا إلى الناس ، وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله ، لم يكن ذلك جزعاً ، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ لجبريل في مرضه : " أجدني مغموماً " و" أجدني مكروباً " ، وقوله : " بل أنا وارأساه ".

الفوائد :

١. الثناء على هؤلاء الأنبياء .
٢. فضل الصبر .
٣. من أخلاق الأنبياء الصبر .
٤. فضل الصلاح وأنه من أسباب الدخول في رحمة الله .

(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)) .

[الأنبياء : ٨٧-٨٨] .

==============

(**وَذَا النُّونِ**) المراد بذي النون: يونس بن متى عليه السلام، والنون: الحوت. وجمعه نينان وأنوان. وسمى بذلك لابتلاع الحوت له.

قال تعالى (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) .

قال الرازي : لا خلاف في أن ذا النون هو يونس عليه السلام .

وملخص قصة يونس «أن الله- تعالى أرسله إلى أهل نينوى بالعراق في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله- عز وجل- فاستعصوا عليه، فضاق بهم ذرعاً، وتركهم وهو غضبان ليذهب إلى غيرهم، فوصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة فركب فيها، وفي خلال سيرها في البحر ضاقت بركابها، فقال ربانها: إنه لا بد من أحد الركاب يلقي بنفسه في البحر

لينجو الجميع من الغرق. فجاءت القرعة على يونس، فألقى بنفسه في اليم فالتقمه الحوت.. ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعلمه الله تعالى، فأرسله سبحانه إلى قومه مرة أخرى فآمنوا.

(**إذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا**) على قومه ، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له .

قال ابنُ جُزي: أدركَه ضَجَرٌ منهم، فخرج عنهم؛ ولذلك قال الله تعالى (وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) .

قال الشنقيطي : واعلَمْ أَنَّ قَوْلَ مَنْ قَالَ مُغَاضِبًا أَيْ : مُغَاضِبًا لِرَبِّهِ كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ ، وَالشَّعْبِيُّ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَاخْتَارَهُ الطَّبَرِيُّ ، وَالْقُتَبِيُّ ، وَاسْتَحْسَنَهُ الْمَهْدَوِيُّ - يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَى مَعْنَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، أَيْ : مُغَاضِبًا مِنْ أَجْلِ رَبِّهِ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ عَمَّنْ ذَكَرْنَا : وَقَالَ النَّحَّاسُ : وَرُبَّمَا أَنْكَرَ هَذَا مَنْ لَا يَعْرِفُ اللُّغَةَ ، وَهُوَ قَوْلٌ صَحِيحٌ ، وَالْمَعْنَى : مُغَاضِبًا مِنْ أَجْلِ رَبِّهِ كَمَا تَقُولُ : غَضِبْتُ لَكَ أَيْ : مِنْ أَجْلِكَ ، وَالْمُؤْمِنُ يَغْضَبُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا عُصِيَ . انْتَهَى مِنْهُ . وَالْمَعْنَى عَلَى مَا ذَكَرَ : مُغَاضِبًا قَوْمَهُ مِنْ أَجْلِ رَبِّهِ ، أَيْ : مِنْ أَجْلِ كُفْرِهِمْ بِهِ وَعِصْيَانِهِمْ لَهُ . وَغَيْرُ هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْآيَةِ .

آيَةُ «الْقَلَمِ» (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ...) تَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يُونُسَ عليه السلام عَجَّلَ بِالذَّهَابِ وَمُغَاضَبَةِ قَوْمِهِ، وَلَمْ يَصْبِرِ الصَّبْرَ اللَّازِمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ مُخَاطِبًا نَبِيَّنَا ﷺ فِيهَا: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ، فَإِنَّ أَمْرَهُ لِنَبِيِّنَا ﷺ بِالصَّبْرِ وَنَهْيَهُ إِيَّاهُ أَنْ يَكُونَ كَصَاحِبِ الْحُوتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ صَاحِبَ الْحُوتِ لَمْ يَصْبِرْ كَمَا يَنْبَغِي .

(**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**) أي : فظن أن لن نضيّق عليه ونعاقبه مقابل تركه لقومه بدون إذننا .

فمعنى (لم نقدر عليه) أي : نضيق عليه .

كما قال تعالى (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ) أي : ويضيق الرزق على من يشاء .

وقال تعالى (وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أي: ضيقه عليه.

قال في التسهيل : (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) أي ظن أن (لن) نضيق عليه، فهو من معنى قوله (ومن قدر عليه رزقه) وقيل: هو من القدر والقضاء : أي ظنّ أن لن نضيق عليه بعقوبة ، ولا يصح قول من قال : إنه من القدرة .

(**فَنَادَى**) بعد أن التقمه الحوت .

(**فِي الظُّلُمَاتِ**) المراد بالظلمات: ظلمات البحر، وبطن الحوت، والليل.

(**أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ**) أي : لا إله للخلق ولا معبود بحق إلا الله .

(**سُبْحَانَكَ**) أي : تنزيها لك عن كل عيب ونقص ، وعن الشريك والولد وعن مشابهة المخلوقين .

(**إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) أي : في خروجي من بين قومي فبل الإذن ، فاعف عني كما هي شيمة القادرين .

(**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) أي : أجبنا دعاءه .

وقد بيّن الله تعالى سبب ذلك في سورة الصافات وأنه من المسبحين .

قال تعالى (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) .

وقد روى الترمذي والحاكم وصححه الألباني عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ (دعوة ذي النُّون إذ دعا وهو في بطن الحوت: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"، فإنه لم يَدعُ بها رجل مسلم في شيء قطُّ إلَّا استجاب الله له).

(**وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ**) بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل .

(**وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**) هذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـ " يونس " . (السعدي)

قال ابن عاشور : الإشارة بـ (كذلك) إلى الإنجاء الذي أُنجي به يونس ، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من غُموم بحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة.

وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغمّ والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم.

الفوائد :

إن ما جرى على نبي الله يونس عليه السلام لا يقلل مِن مكانته: قال الله تعالى: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) ، (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) . وقال النبي ﷺ: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) .

قال النووي : قوله ﷺ و(إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ: لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ لِي يَقُول: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُس بْن مَتَّى) وَفِي رِوَايَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: (مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُس بْن مَتَّى) .

قَالَ الْعُلَمَاء : هَذِهِ الْأَحَادِيث تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدهمَا أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ، فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ قَالَ: أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم ، وَلَمْ يَقُلْ هُنَا إِنَّ يُونُس أَفْضَل مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْره مِنْ الْأَنْبِيَاء صَلَوَات اللَّه وَسَلَامه عَلَيْهِمْ . وَالثَّانِي أَنَّهُ ﷺ قَالَ زَجْرًا عَنْ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَحَدٌ مِنْ الْجَاهِلِينَ شَيْئًا مِنْ حَطِّ مَرْتَبَةِ يُونُسَ ﷺ مِنْ أَجْلِ مَا فِي الْقُرْآن الْعَزِيز مِنْ قِصَّتِهِ . قَالَ الْعُلَمَاء : وَمَا جَرَى لِيُونُسَ عليه السلام لَمْ يَحُطَّهُ مِنْ النُّبُوَّة مِثْقَال ذَرَّة . وَخَصَّ يُونُس بِالذِّكْرِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي الْقُرْآن بِمَا ذُكِرَ .

فالضَّمِير فِي (أَنَا) قِيلَ : يَعُودُ إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَقِيلَ : يَعُودُ إِلَى الْقَائِل أَيْ لَا يَقُولُ ذَلِكَ بَعْض الْجَاهِلِينَ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ فِي عِبَادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَيْر ذَلِكَ مِنْ الْفَضَائِل ، فَإِنَّهُ لَوْ بَلَغَ مِنْ الْفَضَائِل مَا بَلَغَ لَمْ يَبْلُغْ النُّبُوَّة ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيل الرِّوَايَة الَّتِي قَبْله ، وَهِيَ قَوْله تَعَالَى : (لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْر مِنْ يُونُس بْن مَتَّى) وَاَللَّه أَعْلَم .

أهمية الصبر في الدعوة إلى الله تعالى وأنه من أسباب مراضي الله، فقد يضيقُ صدر الداعية بتصرفات الناس، ويقل احتماله لصدودهم، ولكنَّ الصبر والكظم أليق به، وبدعوته؛ لأن ذلك من آداب الدعوة، ووصول الأثر الحسن إلى قلوب المدعوين.

أن ترك الصبر قد يكون سببًا للبلاء، وأن ابتلاء الله لعبده المؤمن وعتابه له لا يدعو إلى نقصه، وإنما هو تأديب من الله ليرقِّيَ عبده المؤمن إلى المراتب العالية؛ فإن البلاء قد يرد العبد إلى ربه، بل ربما رده إلى أفضل مما كان عليه، قال تعالى (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيراً) .

أن الله تعالى اختص يونس بخصيصة تضاف إلى فضائله وهي أنه عبدَ الله هي أنه عبد الله تعالى في مكان لم يعبده فيه أحد من البشر.

المسارعة إلى الابتهال إلى الله وقت البلاء، وفضل التضرع بين يديه والتوسل بتوحيده وتنزيهه، والاعتراف بالذنوب بين يدي الله، فذلك من وسائل إجابة الدعاء، وكشف الضراء.

فضل العبادة في وقت الرخاء فهي التي تنفع وقت الشدائد، فيونس لما سجن في بطن الحوت عرفت الملائكة صوته وشفعت له لكثرة عبادته بالرخاء. قال تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

لم تذكر الآيات كم بقي يونس في بطن الحوت، ولم يذكره أيضًا النبي ﷺ؛ لذلك لا داعي للخوض في تحديد ذلك.

بيان سعة علم الله تعالى وسمعِه وعظمة قدرته؛ فقد علم بموضع نبيه يونس وسمع دعاءه وتسبيحه وتوبته وهو في تلك الظلمات الثلاث. وبقدرته تعالى حفظ حياته وهو في تلك المهلكة، وأعاد إلى جسده رونق الحياة بعد حرِّ بطن الحوت، كما فيه بيان أن الكون كله مسخر لله تعالى يأمره بما شاء، كما أمر الحوت بالتقام يونس وحفظه ثم نبذه في العراء بعد ذلك.

لعلَّ أعظم ما يُستفاد من قصة يونس عليه السلام أنَّ الله لا يخيب الرجاء، ولا يقطع حبل السماء، فما أعظمَ دعاء يونس لربه عندما ضاقت به السبل وانقطعت به الأسباب (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) .

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)) .

[الأنبياء : ٨٩ – ٩٠] .

===============

(**وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا**) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ سُورَةِ مَرْيَمَ وَفِي سُورَةِ آلِ عمران أيضا، وهاهنا أخصر منها .

(**إِذْ نَادَى رَبَّهُ**) أَيْ خُفْيَةً عَنْ قَوْمِهِ .

(**رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً**) أَيْ لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ، دُعَاءٌ وَثَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ .

كما قال تعالى (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) .

ودعا دعاء خفياً : لأنه أخلص وأبعد من الرياء .

قال القاسمي : وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل في الإخلاص .

وقال السعدي : وناداه نداءً خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً .

ودعاء زكريا هذا لم يبين الله في هذا الموضع مكانه ولا وقته ، ولكنه أشار إلى ذلك في سورة آل عمران في قوله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) فقوله (هنالك) أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم. وقال بعضهم: «هنالك» أي في ذلك الوقت، بناء على أن هنا ربما أشير بها إلى الزمان.

(**وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**) أي : خير من يبقى بعد كل من يموت .

(**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**) كما قال تعالى في سورة مريم (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا) .

وقد أوضح جلَّ وعلا في موضعٍ آخرَ هذا الَّذي أجْمله هنا، فبَيَّن أنَّ الَّذي ناداهُ بعضُ الملائكةِ، وأنَّ النِّداءَ المذكورَ وَقَع وهو قائمٌ يصلِّي في المحرابِ :

وذلك قولُه تعالَى (فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) .

وقولُه تعالَى (فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ) قال بعضُ العلماءِ: أطْلَق الملائكةَ وأرادَ جبريلَ . (أضواء البيان)

وقوله تعالى في سورة مريم (لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا) قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ ، مَعْنَاهُ لَمْ نُسَمِّ أَحَدًا قَبْلَهُ يَحْيَى .

وقال الشوكاني : وَفِي إِخْبَارِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يُسَمَّ بِهَذَا الِاسْمِ قَبْلَهُ أَحَدٌ فَضِيلَةٌ لَهُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى تَسْمِيَتَهُ بِهِ، وَلَمْ يَكِلْهَا إِلَى الْأَبَوَيْنِ. وَالْجِهَةُ .

الثَّانِيَةُ: أَنَّ تَسْمِيَتَهُ بِاسْمٍ لَمْ يُوضَعْ لِغَيْرِهِ يُفِيدُ تَشْرِيفَهُ وَتَعْظِيمَهُ .

وقال الشنقيطي : قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ (اسْمُهُ يَحْيَى) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُ، وَلَمْ يَكِلْ تَسْمِيَتَهُ إِلَى أَبِيهِ، وَفِي هَذَا مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِيَحْيَى .

(**وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**) كانت عاقراً لا تلد فولدت .

قال الشوكاني : قوله تعالى (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً . فهذا هو المراد بإصلاح زوجه .

وقيل : كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية . (فتح القدير)

قال السعدي : (وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) بعدما كانت عاقرا، لا يصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس، والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركا بين الوالدين.

قال ابن جرير : والصوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أصلَحَ لزكريَّا زَوجَه، كما أخبَرَ تعالى ذِكرُه، بأن جعَلَها وَلُودًا حَسَنةَ الخُلُقِ؛ لأنَّ كُلَّ ذلك من معاني إصلاحِه إيَّاها، ولم يَخْصُصِ اللهُ جلَّ ثناؤه بذلك بَعضًا دونَ بَعضٍ في كتابِه، ولا على لِسانِ رَسولِه، ولا وضَعَ على خصوصِ ذلك دَلالةً؛ فهو على العُمومِ ما لم يأتِ ما يَجِبُ التَّسليمُ له بأنَّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دونَ بَعضٍ.

(**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**) تعليل لهذا العطاء الذي منحه سبحانه لأنبيائه –عليهم الصلاة والسلام– من نصر واستجابة دعاء .

وقد أفاد الفعل (كان) مع صيغة المضارع (يُسَارِعُونَ) أن هذه المسارعة هي دأب هؤلاء، وأنهم محافظون عليها في الحاضر، عازمون على الاستمرار بفعلها في المستقبل، لقد كانتْ هذه المسارَعة سببًا في إكرام الله لهم، فمَن تعرَّف إلى الله في الرخاء، عرفه الله في الشدة .

والضمير في «إنهم» يعود للأنبياء السابقين. وقيل: يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى .

أي : لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم، لأنهم كانوا يبادرون في فعل الخيرات التي ترضينا، ويجتهدون في أداء كل قول أو عمل أمرناهم به.

قال الرازي : والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

قال السعدي: والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها.

وقد أمر الله بالمسارعة في الخيرات وحث عليها .

قال تعالى (وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ).

وقال تعالى (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون).

وقال ﷺ (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) رواه مسلم.

وقال ﷺ (التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ).

والله مدح المسارعين بالخيرات وبين أن عاقبتهم الفلاح في الدنيا والنعيم الذي لا يزول في الآخرة.

فقال تعالى في مدح أهل الكتاب الذين يتبعون آيات الله والمسارعين بالخيرات (يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِين).

والمسارعة في الخيرات من أسباب استجابة الدعاء.

قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

المسارعة في الخيرات من صفات الموحدين الذين هم من خشية ربهم مشفقون.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُون).

وقال تعالى بعد ذكره للعديد من الأنبياء (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ).

وهي دليل على علو الهمة.

قال تعالى (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ).

وقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ).

وهي سبب لدخول الجنة:

قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ).

السابقون في الدنيا إلى الخيرات سبقوا في الآخرة إلى الجنات فإن السبق هناك على قدر السبق هنا.

- وقد كان الرسول ﷺ وصحابته يبادرون للخيرات:

فقد ثبت في البخاري عن عقبة بن الحارث قال (صليتُ وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال: ذكرت شيئاً من تِبْرٍ عندنا، فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته) [التبر: قطع ذهب أو فضة].

وعن ربيعة بن كعب قال (كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سلني، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم.

لماذا ينبغي نبادر ونسارع إلى الخيرات؟

أولاً: استجابة لأمر الله ورسوله.

كما في الآيات والأحاديث التي سبقت، وقد تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...).

ثانياً: قبل حدوث الشواغل من فقر أو موت أو هرم أو ... .

كما في الحديث قال ﷺ (بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلى فقْراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً ...) . رواه الترمذي وفيه ضعف.

وفي الحديث قال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك، ...) . رواه الحاكم

فالإنسان إذا انشغل بفقره لا يستطيع أن يؤدي ويسارع للأعمال الصالحات، وكذا إذا مرض، فإنه ينشغل بمرضه، وكذا لا يدري متى يأتيه الموت، فالموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل.

ثالثاً: قبل الفتن المانعة من العمل.

كما قال ﷺ (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً) رواه مسلم.

فالإنسان ينبغي أن يبادر بالأعمال الصالحة قبل وقوع الفتن فينشغل بها، فتشغله عن التفرغ للعمل الصالح، كما هو حال كثير من الناس الآن، وأيضاً العمل الصالحة سبب للنجاة من الفتن، ولهذا قال (بادروا بالأعمال – أي الصالحة – فتناً، أي، قبل وقوع الفتن، فالعمل الصالح من إخلاص لله ومتابعة للرسول وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصلاة وخاصة بالليل وغيره سبب للنجاة من الفتن إذا حدثت وانتشرت، ولهذا قام النبي ﷺ ليلة من الليل فزعاً وهو يقول: من يوقظ صواحب الحجرات كي يصلين، ما أنزل الليلة من الفتن).

والعبادة في أول وقتها أفضل .

قال ﷺ (لو يعلم الناس ما في النداء والصفِّ الأوَّل، ثم لم يجدوا إلا أن يستَهِموا عليه، لاستَهَمُوا) .

وقال ﷺ (لا يزال قومٌ يَتأخَّرون حتى يُؤَخِّرهم الله) .

وأخيراً :

ذكر الله في كتابه فضل أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا قبل الفتح على الذين أسلَمُوا بعدُ .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى) .

(**وَيَدْعُونَنَا**) **قيل**: المرادُ بالدُّعاءِ هنا: دعاء المسألة .

وممن ذهَب إلى هذا المعنى: القرطبي، والسعدي، وابنُ عاشور.

وقيل: المراد بالدُّعاءِ في هذا الموضع: العبادةُ.

وممن قال بذلك: ابنُ جرير .

قال ابنُ جرير: وعنى بالدُّعاءِ في هذا الموضِع: العِبادةَ، كما قال: وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) .

وقيل : الدُّعاءُ هنا شامِلٌ لدُعاء العبادةِ ودُعاءِ المسألة .

(**رَغَبًا**) رَغبةً منهم في ثوابِ اللهِ ورحمتِه .

(**وَرَهَبًا**) ورَهبةً مِن عذابِه وغَضَبِه .

- ينبغي على المسلم أن يكون راجياً خائفاً.

قال تعالى (وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

قال السعدي: أي: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ.

وَذِكْرِ الطَّمَعِ الَّذِي هُوَ الرَّجَاءُ فِي آيَةِ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ مَا لَمْ يَطْمَعْ فِي سُؤَالِهِ وَمَطْلُوبِهِ لَمْ تَتَحَرَّكْ نَفْسُهُ لِطَلَبِهِ؛ إذْ طَلَبُ مَا لَا طَمَعَ لَهُ فِيهِ مُمْتَنِعٌ.

وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرهبة.

فقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِين).

عَنْ أَنَسٍ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ «كَيْفَ تَجِدُكَ». قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَاف). رواه الترمذي

وقد وصف الله المؤمنين بعمل الصالحات مع الخوف من الله.

كما قال الله تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).

عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ قَالَ: لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) رواه الترمذي.

وقد ذكر الله تعالى الخوف مقروناً بالرجاء في كتابه الكريم في مواضع كثيرة.

قال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ).

وقوله تعالى (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقوله تعالى (نَبّىء عِبَادِي أَنّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ*وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الألِيمُ).

وقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً).

وقوله تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا).

وكما في قوله سبحانه (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا).

قال ابن القيم: القلب في سيره إلى الله – عزّ وجلّ – بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر.

وقال أيضاً : من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف.

كان الصديق يقول: وددت لو أني شعرة في جنب عبد مؤمن.

وكان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وكان يبكي كثيراً ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

وهذا عمر قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه.

وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أياماً ويعاد ويحسبونه مريضاً.

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته.

وهذا علي وبكاؤه وجوفه، وكان يشتد خوفه من اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

وهذا ابن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق. ... (الجواب الكافي).

قال الحسن البصري: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

وقال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم مأمونوا العواقب ومع ذلك هم أشد خوفاً، والعشرة المشهود لهم بالجنة كذلك، وقد قال عمر ﷺ: لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله.

(**وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**) أي : وكانوا لنا مُتواضِعينَ خاضِعينَ، مُتذَلِّلينَ لا يَستكبِرونَ عن عبادتِنا ودُعائِنا، قد انكَسَرت قلوبُهم لله، وسكَنَت عن الالتِفاتِ إلى غَيرِه .

قال ابنُ القيِّم: الخشوعُ في أصلِ اللُّغةِ: الانخِفاضُ، والذُّلُّ، والسُّكونُ... وأجمع العارِفونَ على أنَّ الخُشوعَ محَلُّه القلبُ، وثَمَرتُه على الجوارِحِ، وهي تُظهِرُه .

-**والخاشع**: المنكسر الخاضع لأوامر الله الذليل المصدق بوعده ووعيده.

قال ابن الجوزي: والخشوع في اللغة: التطامن والتواضع، وقيل: السكون.

وقال القرطبي: والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع.

وقال ابن رجب: فأصل الخشوع خشوع القلب، وهو انكساره لله وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وما استقل به قدمي.

وقال الشنقيطي : الخشوع خشية من الله تكون في القلب فيظهر آثارها على الجوارح .

وقال السعدي: والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلا وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه.

وقال ابن عاشور: والمراد بالخاشع هنا الذي ذلل نفسه وكسر سورتها وعودها أن تطمئن إلى أمر الله وتطلب حسن العواقب وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير.

وللخشوع فضائل:

أولاً: يسهل فعل الطاعة.

لقوله تعالى وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

ثانياً: من علامات المؤمنين المفلحين.

قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

ثالثاً: من صفات الأنبياء.

قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

رابعاً: لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

قال تعالى (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً).

خامساً: هو أول ما يرفع.

قال ﷺ (يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى خاشعاً).

سادساً: عاتب الله الصحابة به.

قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ).

سابعاً: حث النبي ﷺ على الخشوع.

قال ﷺ (هل ترون قبلتي ههنا، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا خشوكم) متفق عليه.

ثامناً: الخشوع من أسباب دخول الجنة.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه.

تاسعاً: أثنى الله على من آمن من أهل الكتاب بخشوعه.

قال تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً).

عاشراً: الخشوع من أسباب قبول العمل.

قال ﷺ (من توضأ نحو وضوئي هذا، ثن صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

قال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

وقال أبو يزيد المدني: إن أول ما يرفع من هذه الأمة الخشوع.

وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يُرِيَ الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

قيل:

من ترك فضول الكلام منح الحكمة.

ومن ترك فضول الضحك منح الهيبة.

ومن ترك فضول الطعام منح لذة العبادة.

ومن ترك فضول النظر منح الخشوع.

الفوائد :

١. أن الأنبياء يلجئون إلى الله .

٢. أن الله لا يعجزه شيء .

٣. من أعظم أسباب إجابة الدعاء التضرع والصدق والالتجاء .

٤. رحمة الله الكبيرة بعبده زكريا حيث استجاب له ووهبه الولد على الكبر .

٥. فضل المسارعة إلى الخيرات .

٦. أن المسارعة إلى الخيرات دليل محبة هذا العمل ومن أمر به .

٧. فضل أن يكون الإنسان راجياً خائفاً .

٨. فضل الخشوع لله .

٩. عبودية الأنبياء .

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)) .
[الأنبياء : ٩١] .

===========

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) يعني مريم .

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) أي : واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها من الحَرامِ، فأمَرْنا جبريلَ أن يَنفُخَ الرُّوحَ في جَيبِ درعِها ، فبَلَغَت النَّفخةُ فَرْجَها، فحَمَلت بعِيسى .

قال الشنقيطي: ... ولكنه تعالى بين كل ذلك في غير هذا الموضع، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال (وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال (والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) الآية. والذي عليه الجمهور من العلماء: أنا لمراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله (قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً) كما تقدم. ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله (فنفخنا) لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ. فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل إلا منه إلا بمشيئة جل وعلا – أسنده إلى نفسه – والله تعالى أعلم.

ولذلك أثنى الله عليها بالعفة :

فقال تعالى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) فأعاضها الله بعفتها ولداً من آيات الله ورسولاً من رسله. ... (السعدي).

(وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا) عيسى .

(آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون).

وهذه الآية كقوله (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا).

وكما قال تعالى في سورة مريم (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) أي: ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر آيَةً عظيمة، وأمراً عجيباً يدل دلالة واضحة على قدرتنا، أمام الناس جميعا، فإن قدرتنا لا يعجزها ذلك، كما لا يعجزها أن توجد بشراً من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم. أو من غير أم كما فعلنا مع حواء، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر.

قال البقاعي: أي: علامة على كمال قدرتنا على البعث أدل من الآية في يحيى ﷺ، وبه تمام القسمة الرباعية في خلق البشر، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، وحواء من ذكر بلا أنثى وآدم ﷺ لا من ذكر ولا أنثى، وبقية أولاده من ذكر وأنثى معاً.

وقال السعدي: (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها.

قال ابن القيم: خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أضرب:

لا من ذكر ولا من أنثى، كآدم.

من ذكر بلا أنثى، كحواء.

من أنثى بلا ذكر، كالمسيح.

من ذكر وأنثى، كسائر النوع.

الفوائد :

١. الثناء على مريم بعفتها .

٢. أن مريم وابنها من أعظم الآيات الدالة على قدرة الله تعالى .

٣. وجوب الإيمان أن عيسى من أم بلا أب .

٤. أن من يرمي مريم بالفاحشة فهو كافر مكذب بالقرآن .

٥. عقيدتنا بعيسى : أنه عبد الله ورسوله وأن أمه مريم .

(**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)**) .

[الأنبياء : ٩٢] .

==========

(**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**) أي : دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام ، والأنبياء كلهم دعوتهم التوحيد .

وقد تقدم أن الأمة أطلقت في القرآن على عدة معان؛ اذكرها ؟

أ-بمعنى الطائفة.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ...).

ب-بمعنى الإمام.

كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً).

ج-بمعنى الملة.

كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ...).

د-بمعنى الزمن.

كما قال تعالى (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ...).

(**وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**) أي : أفردوني بالعبادة والتوحيد .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ).

وقال سُبحانَه (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ، عن رَسولِ اللهِ ﷺ قال (أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى ابنِ مَريمَ في الأُولى والآخرةِ. قالوا: كيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلَّاتٍ، وأمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ، فليس بيننا نبيٌّ) .

الفوائد :

١. أن دين جميع الأنبياء واحد وهو التوحيد .

٢. وجوب عبادة الله .

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣)) .

[الأنبياء : ٩٣] .

==========

(**وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ**) أي : اختلفت الأمم على رسلها ، فمن بين مصدق لهم ومكذب .

(**كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ**) أي : يوم القيامة ، فيجازي كلاً بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

الفوائد :

١. ذم التفرق والاختلاف .

٢. تهديد لكل من ترك الحق بأن الله يجازيه .

٣. إثبات البعث والجزاء .

(فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)) .

[الأنبياء : ٩٤] .

==========

(**فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ**) وهو أن يكون خالصاً لله ، متبعاً للسنة .

ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) بشرط الإيمان، أَيْ مُوَحِّدٌ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، غَيْرُ مُشْرِكٍ بِهِ وَلَا كَافِرٍ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَشْكُرُ سَعْيَهُ، بِأَنْ يُثِيبَهُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ عَنْ عَمَلِهِ الْقَلِيلِ.

هذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

- فالإيمان شرط لقبول الأعمال وصحتها.

كما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً).

وقال تعالى (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ).

وقال تعالى (مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) .

فأعمال الكافر مردودة غير مقبولة.

قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً).

وقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ).

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ (لاَ يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) رواه مسلم.

قال النووي: معنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة، لكونه كافراً، وهو معنى قوله ﷺ: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، أي لم يكن مصدقاً بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل، فمن شروط قبول العمل الإيمان. (نووي).

(**فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ**) أي : لا بطلان لثواب عمله ولا يضيع شيء من عمله .

(**وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ**) أي: ونحن نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، صَغيرَها وكَبيرَها، لا نَترُكُ منها شَيئًا، وما كتَبْناه غيرُ ضائعٍ، بل هو باقٍ لصاحِبِه؛ لِنُطلِعَه عليه يومَ الجَزاءِ، ونجازيَه على ما قدَّمَ .

قال الواحدي: المعنى: نأمُرُ الحَفَظةَ بأن يكتُبوا لذلك العامِلِ ما عَمِلَ مِن الخيرِ؛ لنُجازيَه به .

وقال السعدي: وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ أي: مُثبِتونَ له في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي مع الحَفَظةِ .

الفوائد :

١. في الآية شروط قبول العمل .
٢. أن الإيمان شرط لقبول جميع الأعمال .
٣. أنه لا ينفع عمل صالح مع الشرك .
٤. فضل العمل الصالح.
٥. ينبغي الاجتهاد أن يكون عمل الإنسان صالحاً.
٦. الحذر من الرياء وطلب المحمدة.
٧. أن الله لا يضيع عمل عامل ، بل يثيبه ويضاعف له .
٨. أن الله يكتب كل شيء .

٩. المراد أن الملائكة يكتبون كل شيء يعمله الإنسان .

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥)) .

[الأنبياء : ٩٥] .

==========

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُون) أي : ممتَنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها بعد مَوتِهم إلى الدُّنيا.

قال ابن عاشور : والمراد بالقرية أهلها، وهذا يعم كلّ قرية من قرى الكفر، كما قال تعالى (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا).

والحرام : الشيء الممنوع .

واختاره ابن كثير ، والسعدي .

قال الخازن : قال ابن عباس: ومعناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك، وقيل: معناه وحرام على أهل قرية حكمنا بهلاكهم أن نقبل أعمالهم لأنهم لا يتوبون .

وقال القاسمي : أي : وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم، فأهلكهم بذنوبهم، أن يرجعوا إلى أهلهم، كقوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ) وقوله (فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) وزيادة لا هنا لتأكيد معنى النفي من حرام وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه؛ هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوّعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهم الكبرى ، وهي حياتهم الدنيا .

وقيل المعنى : وممتنع على أهل قرية عدم رجوعهم إلينا للجزاء .

الفوائد :

١. أن الله لا يهلك أمة من الأمم إلا بعد الإنذار .

٢. أن الله أهلك كثيراً من القرى بسبب تكذيبها .

٣. أن الله لا يعجزه شيء .

٤. أنه لا أحد يرجع إلى الدنيا بعد موته .

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧))

[الأنبياء : ٩٦-٩٧] .

============

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) أي: حتى إذا فُتِحَ السَّدُّ الذي حُبِسَ وراءَه قَبيلَتا يأجوجَ ومأجوجَ، فخَرَجوا منه .

قال القرطبي : وفي الكلام حذف ، أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ".

وقال ابن عاشور : ... ففتح يأجوج ومأجوج هو فتح السدّ الذي هو حائل بينهم وبين الانتشار في أنحاء الأرض بالفساد ، وهو المذكور في قصة ذي القرنين في سورة الكهف ... وتوقيت وعد الساعة بخروج يأجوج ومأجوج أن خروجهم أول علامات اقتراب القيامة.

يأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم كما في الحديث (أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ... إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج).

قال ابن كثير: هم مِن نَسلِ نوحٍ مِن أولادِ يافثَ؛ أبي التُّركِ، والتُّركُ شِرذَمةٌ منهم، تُركوا مِن وراء السَّدِّ الذي بناه ذو القرنينِ .

وهذا فيه أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى .

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ (اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ «مَا تَذَاكَرُونَ». قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ». فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِم) رواه مسلم.

كما قال تعالى (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) .

وعن زَينَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ (دخَلَ عليها فزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قد اقترَب، فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وحَلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟! قال: نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَث) متفق عليه .

وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: (فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَد بيدِه تِسعينَ) متفق عليه .

وأصلهم من البشر من ذرية آدم وحواء.

لحديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ (يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعند ذلك يشيب الصغير (وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد، قال: أبشروا، فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً ...) متفق عليه.

قال ابن كثير: هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثم ذكر الحديث السابق.

وقال: وهم يشبهون الناس، كأبناء جنسهم، ومن زعم أن منهم الطويل كالنخلة ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى، فكل هذه الأقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان، والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم.

ففي حديث النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ (... فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يُدان لأحد بقتالهم ...) رواه مسلم.

وقد حذر الرسول ﷺ منهم.

فقال (ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها ..).

وقد بنى ذو القرنين سد يأجوج ومأجوج ليحجز بينهم وبين جيرانهم الذي استغاثوا به كما ذكر الله في القرآن أن وعد الله حق كائن لا محالة.

(**وَهُم**) أكثر المفسرين أن (وَهُم) كناية عن يأجوج ومأجوج .

واختاره : الواحدي ، والطبري ، والسمرقندي ، والرازي ، والقرطبي ، والخازن ، والشوكاني ، وهو قول جمهور المفسرين .

قال الرازي : أكثر المفسرين إنه كناية عن يأجوج ومأجوج .

وقال القرطبي : إنهم يأجوج ومأجوج وهو الأظهر .

وقيل : إنه يعود إلى جميع الناس حين يحشرون إلى الموقف .

والصحيح الأول :

أ-لما ثبت في صحيح مسلم قال ﷺ (... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ...) .

ب-أن الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه ، ويأجوج ومأجوج أقرب مذكور في الآية .

ج-أنه قول جمهور المفسرين .

(**مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**) أي : وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول .

والمراد أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض .

وقال السَّعدي: ينفتِحُ السَّدُّ عنهم، فيَخرُجونَ إلى النَّاسِ في هذه الحالةِ والوَصفِ الذي ذكره اللهُ مِن كُلِّ مكانٍ مُرتَفِعٍ، وهو الحَدَبِ، يَنْسِلُونَ أي: يُسرِعونَ. وفي هذا دَلالةٌ على كَثرَتِهم الباهرةِ، وإسراعِهم في الأرضِ؛ إمَّا بذواتِهم، وإمَّا بما خلَقَ اللهُ لهم من الأسبابِ التي تقَرِّبُ لهم البعيدَ، وتُسَهِّلُ عليهم الصَّعبَ، وأنَّهم يَقهَرونَ النَّاسَ، ويَعلُونَ عليهم في الدُّنيا، وأنَّه لا يَدَ لأحَدٍ بقِتالِهم .

(**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ**) أي : اقترب يوم القيامة .

وفسّر اقتراب الوعد باقتراب القيامة ، وسُمّيت وعداً لأن البعث سمّاه الله وعداً في قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) .

فخروج يأجوج ومأجوج علامة على قرب القيامة .

(**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) أي: فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مَفتوحةٌ لا تَطرِفُ؛ مِن شِدَّةِ ما يَرَونَه مِن أهوالٍ وأمورٍ عِظامٍ .

كما قال تعالى (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) .

تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ : أي: ترتفع فيه الأبصار، أي: العيون، فلا تتحرك ولا تطرف من شدة الخوف والفزع.

قال الخازن: يقال شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم.

قال الشنقيطي: ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

(**يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**) أي : ويقولون يا ويلنا اي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب .

قال ابن عاشور: ويَا وَيْلَنَا دعاءٌ على أنفسِهم مِن شدةِ ما لحِقَهم .

(**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**) أضربوا عن القول السابق ، واخبروا بالحقيقة المؤلمة ، والمعنى : لم نكن في غفلة حيث ذكرتنا الرسل ونبهتنا الآيات ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الايمان .

قال أبو السعود : (بَلْ كُنَّا ظالمين) إضرابٌ عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذُرِ مكذّبين بها ، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب.

قال ابن عاشور : (يا ويلنا) دعاء على أنفسهم من شدة ما لحقهم.

و(بل) للإضراب الإبطالي ، أي ما كنا في غفلة لأننا قد دُعينا وأُنذرنا وإنما كنا ظالمين أنفسنا بمكابرتنا وإعراضنا.

والمشار إليه بـ (هذا) هو مجموع تلك الأحوال من الحشر والحساب والجزاء.

الفوائد :

١. إثبات القيامة .

٢. أن من علامات الساعة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج .

٣. كثرة يأجوج ومأجوج وانتشارهم .

٤. شدة يوم القيامة على الكافرين .

٥. من هول ذلك اليوم : شخوص البصر .

٦. اعتراف الكفار يوم القيامة بتفريطهم بالدنيا ولكن لا ينفع الندم .

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠))

[الأنبياء : ٩٨-١٠٠] .

==============

(**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**) أي : إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام .

(**حَصَبُ جَهَنَّمَ**) أي : وقودها .

(**أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**) أي: أنتم -أيُّها المشرِكونَ- داخِلونَ جَهنَّمَ مع آلهَتِكم التي كُنتُم تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ

كما قال تعالى (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) .

وقال سُبحانه (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) .

قال الشوكاني : والمراد بالورود هنا: الدخول . قال كثير من أهل العلم: ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة، لأن (ما) لمن لا يعقل، ولو أراد العموم لقال: ومن يعبدون . قال الزجاج: ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم. (فتح القدير)

فلا يدخل في هذه الآية بعض المعبودات —كعيسى ، وعزير — وذلك لأمور :

الأول : أن هذه الآية لا تتناول الملائكة ولا عيسى ولا عزيراً وإن كانوا معبودين، وذلك لتعبيره بـ (ما) الدالة على غير العاقل.

قال الشوكاني : قال كثير من أهل العلم: ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة، لأن (ما) لمن لا يعقل، ولو أراد العموم لقال : ومن يعبدون .

ورجح هذا المسلك : ابن جرير ، وابن عطية ، والألوسي ، ونسبه الشوكاني لكثير من أهل العلم .

الثاني : أن هذه الآية (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) إنما نزلت خطاباً لمشركي مكة دون غيرهم ، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً لا تحس ولا تعقل ، ولا يعبدون المسيح ولا عزيراً ، ولا غيرهما من الأنبياء والصالحين .

وقال بهذا : الزجاج ، وابن كثير .

قال الرازي : الحكمة في أنهم قرنوا بآلهتهم أمور.

أحدها : أنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة، لأنهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب.

وثانيها : أن القوم قدروا أنهم يشفعون لهم في الآخرة في دفع العذاب، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

وثالثها : أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بعبادها.

ورابعها : قيل ما كان منها حجراً أو حديداً يحمى ويلزق بعبادها ، وما كان خشباً يجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

قال الشوكاني : ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحسّ به : التبكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم . وقيل : إنما تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم .

قال السعدي: الحِكمةُ في دخولِ الأصنامِ النَّارَ -وهي جمادٌ لا تَعقِلُ، وليس عليها ذَنبٌ- بيانُ كَذِبِ مَن اتخَذَها آلِهةً، وليَزدادَ عَذابُهم .

(**لَوْ كَانَ هَؤُلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا**) أي : لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها . (ابن كثير)

(**وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**) أي : العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون .

(**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ**) أي: للمُشرِكينَ وآلهَتِهم في جَهنَّمَ زَفيرٌ مِن شِدَّةِ العَذابِ .

قال ابن عطية: الضَّميرُ في لَهُمْ عائدٌ على من يَعقِلُ مِمَّن تُوُعِّدَ .

وقال البقاعي: لَهُمْ أي: لِمَن فيه الحياةُ مِن المذكورينَ: العابدينَ مُطلَقًا، والمعبودينَ الرَّاضينَ كفِرعَونَ.

وقال الزمخشري: إذا كانوا هم وأصنامُهم في قَرَنٍ واحدٍ، جاز أن يقال: لهم زَفيرٌ، وإن لم يكُنِ الزَّافرونَ إلَّا هم دونَ الأصنامِ؛ للتَّغليبِ، ولِعَدَمِ الإلباسِ .

قال ابن عطية: الزفيرُ صَوتُ المعَذَّبِ، وهو كنهيقِ الحَميرِ وشِبهُه، إلَّا أنَّه مِنَ الصَّدرِ .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) .

الزفير : هو إخراج النفَس بشدة ، والشهيق : هو رد النفس بشدة ، قال الطبري : صوتُ الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق .

والمراد بهما: الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة، واستبد به الضيق حتى صار في كرب شديد .

(**وَهُمْ فِيهَا**) أي : في النار .

(**لا يَسْمَعُونَ**) قيل : يُسلبونَ حاسَّةَ السمعِ .

واختاره : النسفي، وابن عاشور، والشنقيطي.

وقيل: لأنَّ في سَماعِ الأشياءِ رَوحًا وأُنسًا، فمَنَع اللهُ الكفَّارَ ذلك في النَّارِ.

وقيل: ليُمنَعوا راحةَ التَّأسِّي بالمشارِكِ لهم في العذابِ؛ مُبالغةً في عذابِهم، ويكونُ هذا كقَولِه عزَّ وجَلَّ (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) فإنَّهم حُرِموا هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ، ولا شُبهةَ بأنَّ التأسِّيَ يُهَوِّنُ المصيبةَ ويُخَفِّفُها.

وقيل : لا يسمعون ما يسرهم .

وقيل: المرادُ: لا يسمعُ بعضُهم زفيرَ بعضٍ؛ لشدةِ الهولِ، وفظاعةِ العذابِ.

واختاره : أبو السعودِ، والشوكاني.

قال الشوكاني : (وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ) أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدّة الهول .

وقيل : لا يسمعون شيئاً ، لأنهم يحشرون صماً كما قال سبحانه (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا).

وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّح وتأنس .

وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوؤهم .

قال الشنقيطي : ذكَر -جلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أهلَ النارِ لا يسمعونَ فيها .

وبيَّن في غيرِ هذا الموضعِ أنَّهم لا يتكلمونَ، ولا يبصرونَ؛ كقولِه (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) وقولِه (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) وقولِه (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ) معَ أنَّه -جلَّ وعلا- ذكَر في آياتٍ أُخرَ ما يدلُّ على أنَّهم يسمعونَ ويبصرونَ ويتكلمونَ؛ كقولِه تعالى (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقولِه (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) وقولِه (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ) ؟

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: كونُ المرادِ مِمَّا ذُكِر -مِن العمَى، والصممِ، والبكمِ- حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيرونَ النَّارَ، ويسمعونَ زَفيرَها، وينطِقُونَ بما حَكَى اللَّهُ تعالَى عنهم في غيرِ موضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أَنَّهم لا يرونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يسمعونَ كذلك، ولا يَنْطِقونَ بِحُجَّةٍ، كما أَنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنْطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه منزلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتفاعِ به، والعربُ في كلامِها تُطلِقُ الصممَ على السماعِ الذي لا فائدةَ فيه. وكذلك الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، والرُّؤيةُ التي لا فائدةَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللَّهَ إذا قال لهم (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) وَقَع بهم ذاك العمَى والصَّممُ والبَكَمُ مِنْ شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفرجِ، قال تعالَى: وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ .

الفوائد :

١. أن الكافر في جهنم .
٢. من شدة عذاب الكافر أنه يكون حطب لجهنم .
٣. ومن شدته أيضاً عليه : أنه يعذب معه الأصنام التي عبدها في الدنيا حسرة وشدة عليه .
٤. تبكيت من يعبد الأصنام وأنها لا تحمي نفسها .
٥. تحريم عبادة غير الله .
٦. من شدة عذاب الكافر أن له زفيراً من شدة الهم والغم والعذاب .

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)) .

[الأنبياء : ١٠١-١٠٣] .

==============

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى) أي : السعادة بدخول الجنة .

قال ابن الجوزي : وفي المراد بالحسنى قولان.

أحدهما : الجنة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والثاني : السعادة .

(أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) أي : عن النار .

(لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) أي: لا يَسمَعُ المؤمِنونَ وهم في الجَنَّةِ صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها .

قال ابنُ عاشور: جُملةُ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا بيانٌ لمعنى مُبْعَدُونَ، أي: مُبعَدونَ عنها بُعدًا شَديدًا بحيثُ لا يَلفَحُهم حَرُّها، ولا يُرَوِّعهم مَنظَرُها، ولا يَسمَعونَ صَوتَها، والصَّوتُ يَبلُغُ إلى السَّمعِ مِن أبعَدِ ممَّا يبلُغُ منه المرئيُّ. والحسيسُ: الصَّوتُ الذي يبلُغُ الحِسَّ، أي: الصَّوتُ الذي يُسمَعُ مِن بَعيدٍ، أي: لا يَقرَبونَ مِنَ النَّارِ، ولا تَبلُغُ أسماعَهم أصواتُها، فهم سالِمونَ مِنَ الفَزَعِ مِن أصواتِها، فلا يَقرَعُ أسماعَهم ما يُؤلِمُها .

(وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ) أي : وهم في الجنة دائمون ، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

كما قال تعالى (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) .

قال السعدي : (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) من المآكل، والمشارب، والمناكح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

فقوله (خالدون) هذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة.

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه.

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

(**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ**) كما قال تعالى (ووَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) .

قيل : عند ذبح الموت .

وقيل : حين تطبق جهنم على أهلها .

وقال ابن عطية : ... قال فرقة هو الأمر بأهل النار إلى النار ، وقالت فرقة هو النفخة الآخرة.

وقيل : أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب . (قاله الشوكاني) .

وقيل : المراد النفخة الأخيرة .

ورجحه : البيضاوي ، والنسفي ، والآلوسي ، وابن عاشور .

قال الطبري : وأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : ذَلِكَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الآخِرَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنَ لَمْ يَحْزُنْهُ ذَلِكَ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَآمَنَ مِنْهُ ، فَهُوَ مِمَّا بَعْدَهُ أَحْرَى أَنْ لاَ يَفْزَعَ ، وَأَنَّ مَنْ أَفْزَعَهُ ذَلِكَ فَغَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ الْفَزَعُ مِمَّا بَعْدَهُ.

وقال الآلوسي : والظاهر أن المراد بها النفخة للقيام من القبور لرب العالمين .

قال ابن الجوزي : وفي الفزع الأكبر أربعة أقوال.

أحدها : أنه النفخة الآخرة ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم ، ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى (وتتلقاهم الملائكة) .

والثاني : أنه إطباق النار على أهلها ، رواه سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك.

والثالث : أنه ذبح الموت بين الجنة والنار ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال ابن جريج.

والرابع : أنه حين يؤمر بالعبد إلى النار ، قاله الحسن البصري.

(**وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**) أي: ويَستَقبِلُ الملائِكةُ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ، فيُهَنِّئونَهم ويُبَشِّرونَهم برَحمةِ اللهِ، ونَيْلِ كرامتِه؛ يقولونَ لهم: هذا اليومُ الحاضِرُ هو اليَومُ الذي كُنتُم في الدُّنيا تُوعَدونَ أن يُثيبَكم اللهُ فيه على قيامِكم بطاعتِه .

قيل : على أبواب الجنة .

ورجحه البغوي ، والقرطبي ، والخازن ، والشوكاني .

قال الخازن : (وتتلقاهم الملائكة) أي : تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم .

وقال الشوكاني : أي تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم .

وقيل : عند الخروج من القبور .

ورجحه : ابن كثير ، والسعدي .

قال السعدي : (وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ) إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا على النجائب وفدا، لنشورهم، مهنئين لهم .

الفوائد :

١. أن من سبقت له الحسنى فهو في الجنة .

٢. أن من نعيم أهل الجنة أنهم لا يسمعون حتى حسيس النار .

٣. من أعظم نعيم أهل الجنة خلودهم فيها .

٤. أن أكبر عيب للدنيا هو تقلبها وزوال الإنسان عنها .

٥. إثبات الفزع يوم القيامة .

٦. أن أهل السعادة لا يحزنهم شيء من أهوال القيامة .

٧. من النعيم أن الملائكة تبشرهم وتهنئهم عند خروجهم من القبور وعند باب الجنة .

٨. فضل من صدق بالوعد وعمل في الدنيا للآخرة .

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)) .
[الأنبياء : ١٠٤] .

============

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) أي: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله (فلما أسلما وتله للجبين) أي: على الجبين .

فالسجل : الصحيفة ، وهذا ما عليه أكثر المفسرين .

ويكون المعنى : أي كطي الصحيفة على ما كتب فيها .

قال الشنقيطي : أَنَّ السِّجِلَّ : الصَّحِيفَةُ ، وَالْمُرَادُ بِالْكُتُبِ : مَا كُتِبَ فِيهَا ، وَاللَّامُ بِمَعْنَى عَلَى ، أَيْ : كَطَيِّ السِّجِلِّ عَلَى الْكُتُبِ ، أَيْ : كَطَيِّ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا كُتِبَ فِيهَا

قال الشنقيطي : صرَّحَ فِي «الزُّمَرِ» بِأَنَّ الْأَرْضَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .
وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ كَوْنِ السَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَدَّمْنَا مِرَارًا أَنَّ الْوَاجِبَ فِي ذَلِكَ إِمْرَارُهُ كَمَا جَاءَ ، وَالتَّصْدِيقُ بِهِ مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ صِفَةَ الْخَالِقِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُمَاثِلَ صِفَةَ الْمَخْلُوقِ .

قال بعض العلماء : أَنَّ السِّجِلَّ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَطْوِي كُتُبَ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ إِذَا رُفِعَتْ إِلَيْهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، تَرْفَعُ إِلَيْهِ الْحَفَظَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِالْخَلْقِ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ ، وَكَانَ مِنْ أَعْوَانِهِ (فِيمَا ذَكَرُوا) هَارُوتُ وَمَارُوتُ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ لَا يَطْوِي الصَّحِيفَةَ حَتَّى يَمُوتَ صَاحِبُهَا ، فَيَرْفَعَهَا وَيَطْوِيَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ السِّجِلَّ صَحَابِيٌّ كَاتِبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ظَاهِرُ السُّقُوطِ كَمَا تَرَى .

قال بعض المفسرين : أن المراد بالسجل كاتب كان لرسول ﷺ .

وهذا القول ضعيف .

قال ابن عطية : هذا كله وما شاكله ضعيف .

وقال الرازي : وهذا بعيد ، لأن كتاب رسول الله ﷺ كانوا معروفين وليس فيهم من سمي بهذا .

وقال ابن جزي : وهذا ضعيف .

وقال الآلوسي : وضعف ذلك ، بل قيل إنه قول واه جداً ، لأنه لم يعرف أحد من الصحابة ﷺ اسمه السجل .

وقال الشنقيطي : وهو ظاهر السقوط كما ترى .

(**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**) أي : كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم

قال في التسهيل : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) أي : كما قدرنا على البداءة نقدر على الإعادة ، فهو كقوله (قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وقيل : المعنى نعيدهم على الصورة التي بدأناهم كما جاء في الحديث : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » ثم قرأ (كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ (قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ بِمَوعِظَةٍ، فَقَالَ (يَا أيُّهَا النَّاسُ، إنَّكُمْ مَحْشُورونَ إِلَى الله تَعَالَى حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء: ١٠٣] ألا وَإنَّ أَوَّلَ الخَلائِقِ يُكْسى يومَ القِيَامَةِ إبراهيمُ ﷺ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وعن عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا) قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ! فَقَالَ: (الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ) متفق عليه.

قال ابن جرير : معنى الكلامِ: نُعيدُ الخَلْقَ عُراةً حُفاةً غُرْلًا يومَ القيامةِ كما بدَأْناهم أوَّلَ مرَّةٍ في حالِ خلَقْناهم في بُطونِ أمَّهاتهم.

وقال البغوي : أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة، نظيره قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

قد جاءت النصوص في الإنسان يأتي يوم القيامة فرداً:

قال تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ ..).

فقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أَيْ مُنْفَرِدِينَ لَا مَالَ، وَلَا أَثَاثَ، وَلَا رَقِيقَ، وَلَا خَوَلَ عِنْدَكُمْ، حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا، أَيْ: غَيْرَ مَخْتُونِينَ (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...).

وقال تعالى (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً).

وقال تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ).

(**وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**) ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

وفي هذا إثبات البعث .

الفوائد :

١. قدرة الله العظيمة بطي السماء كطي الكتاب .
٢. أن الله لا يعجزه شيء .
٣. إثبات البعث ، وأن الله يبعث الخلق يوم القيامة .
٤. أن يبعث الناس كما خلقهم أول مرة ، حفاة عراة غرلاً .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)) .

[الأنبياء : ١٠٥] .

==========

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الزبور : الكتب المنزلة ، الذكر : اللوح المحفوظ ، والأرض أرض الجنة .

وهذا القول (أن الزبور : جميع الكتب المنزلة) اختاره : الواحدي ، والطبري ، والزجاج ، والشنقيطي .

ويكون المعنى :

قال الشنقيطي : أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الزَّبُورَ الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ يُرَادُ بِهِ جِنْسُ الْكِتَابِ فَيَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ ، كَالتَّوْرَاةِ ، وَالْإِنْجِيلِ ، وَزَبُورِ دَاوُدَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ : أُمُّ الْكِتَابِ ، وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ بَعْدَ أَنْ كَتَبْنَا ذَلِكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ . وَهَذَا الْمَعْنَى وَاضِحٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ .

وقال بعض المفسرين : الزَّبُورُ فِي الْآيَةِ زَبُورُ دَاوُدَ ، وَالذِّكْرُ : التَّوْرَاةُ .

واختاره : النسفي ، وابن جزي ، وأبو حيان ، والآلوسي .

قال أبو حيان : الظاهر أنه زبور داود .

وعلل ابن جزي اختياره هذا بقوله : بأن إطلاق الزبور على كتاب داود أظهر وأكثر استعمالاً ، ولأن الزبور مفرد فدلالته على الواحد أرجح من دلالته على الجمع .

أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) قد اختلف في معنى (الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون) .

فقيل : المراد : أرض الجنة .

قال ابن الجوزي : وبه قال الأكثرون.

قال القرطبي : أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما. (التفسير)

واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه (وَقَالُواْ الحمد للهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نتبوأ من الجنة) .

ولأنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع ، فأما أرض الدنيا فلأنها للصالح وغير الصالح.

ولأن هذه الأرض مذكورة عقيب الإعادة وبعد الإعادة الأرض التي هذا وصفها لا تكون إلا الجنة.

وقيل : هي أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها .

ودليل هذا القول قوله سبحانه (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) .

وقوله تعالى (قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ)

قال الشوكاني : والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين .

وقال الماوردي : قوله تعالى (أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها أرض الجنة يرثها أهل الطاعة ، وهذا قول سعيد بن جبير ، وابن زيد.

والثاني : أنها الأرض المقدسة يرثها بنو إسرائيل ، وهذا قول الكلبي.

والثالث : أنها أرض الدنيا ، والذي يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول ابن عباس.

قال السعدي : (أَنَّ الأَرْضَ) أي: أرض الجنة (يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) .

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم) .

الفوائد :

١. في الآية وعد أكيد من الله لأوليائه الصالحين بأن يرثوا وينتصروا على الكفار .

   وعلى المعنى الآخر : تبشير الصالحين بالجنة .

٢. أن هذا الأمر مكتوب في جميع الكتب المنزلة .

   أيضاً أن الأمر مكتوب في اللوح المحفوظ .

٣. تسلية للمؤمنين .

٤. فضل أن يكون الإنسان عبداً صالحاً لله تعالى .

٥. فضل الصلاح .

٦. الثقة بنصر الله .

٧. أن الجنة لا يدخلها إلا مؤمن .

(إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦))

[الأنبياء : ١٠٦] .

==========

(**إِنَّ فِي هَذَا**) أي : في إنزال هذا القرآن .

وممن اختار أنَّ الإشارةَ في قولِه (إِنَّ فِي هَذَا) تعودُ إلى القرآنِ الكريمِ:

ابنُ جريرٍ ، وابنُ كثيرٍ ، والسعدي ، والشنقيطي .

قال ابن جرير : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، لَبَلاَغًا لِمَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ إِلَى رِضْوَانِهِ ، وَإِدْرَاكِ الطَّلِبَةِ عِنْدَهُ.

وقال ابن كثير : أي : إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً : لمنفعة وكفاية .

وقيل: المرادُ: ما جرَى ذِكرُه في هذه السورةِ مِن الوَعظِ وغيرِه. .

واختاره القرطبي ، والبيضاوي .

قال الرازي : قوله تعالى (إِنَّ فِي هذا لبلاغا لّقَوْمٍ عابدين) فقوله هذا إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة .

وقال الشنقيطي جامع بين القولين : الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ (هَذَا) لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي مِنْهُ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ .

(**لَبَلاغًا**) أي : لبلاغاً يبلغهم إلى رضوان الله وإلى جنته .

قال ابن الجوزي : (لَبلاغاً) أي : لَكِفاية ؛ والمعنى : أن من اتَّبع القرآن وعمل به ، كان القرآن بلاغه إلى الجنة.

وقال الخازن : (إن في هذا) أي في القرآن (لبلاغاً) أي وصولاً إلى البغية يعني من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل إلى ما يرجو من الثواب، وقيل البلاغ الكفاية أي فيه كفاية لما فيه من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد إلى الجنة .

(**لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ**) أي : يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين وشهوات النفس .

قال القرطبي : وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ .

الفوائد :

١. الثناء العظيم على هذا القرآن الكريم .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا).

وَقَوْلِهِ (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

وَقَوْلِهِ (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

وَقَوْلِهِ (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

وَقَوْلِهِ (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ الْآيَةَ).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (هذا بلاغ للناس ...) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ....).

٢. فضل العبودية لله .

٣. كلما كان الإنسان أكثر عبودية لله كان أكثر تأثراً واتباعاً للقرآن .

(**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)**) .

[الأنبياء : ١٠٧] .

==========

(**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ**) يا محمد .

(**إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**) ذَكَرَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مَا أَرْسَلَ هَذَا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وسلامه عليه إِلَى الْخَلَائِقِ إِلَّا رَحْمَةً لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ جَاءَهُمْ بِمَا يُسْعِدُهُمْ وَيَنَالُونَ بِهِ كُلَّ خَيْرٍ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنِ اتَّبَعُوهُ . وَمَنْ خَالَفَ وَلَمْ يَتَّبِعْ فَهُوَ الَّذِي ضَيَّعَ عَلَى نَفْسِهِ نَصِيبَهُ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الْعُظْمَى

قال ابن كثير : يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ أَيْ أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لَهُمْ كُلِّهِمْ فَمَنْ قَبِلَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قال الرازي : أنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا ، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام ، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار وكان التوفيق قريناً

له قال الله تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء) إلى قوله (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه. (التفسير)

وقال ابن عاشور : وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين : الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة ، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته. (التفسير)

كَمَا قَالَ تَعَالَى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ) .

وقال تَعَالَى فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) .

وقال سبحانه (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).

وقال سبحانه (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ).

فدعوة الرسل : إخلاص لله ، ورحمة للخلق .

ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة) رواه الحاكم.

وعن أبي هريرة أنّه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال (إنّي لم أبعث لعّانا، وإنّما بعثت رحمة).

قال ابن جرير: أولى القولينِ في ذلك بالصوابِ القولُ الذي رُوي عن ابنِ عباسٍ، وهو أنَّ الله أرسَل نبيَّه محمدًا ﷺ رحمةً لجميعِ العالَمِ؛ مؤمنِهم ، وكافرِهم .

وقال ابن عطية : وقالت فرقة "العالمون" عام ورحمته للمؤمنين بينة وهي للكافرين بأن الله تعالى رفع عن الأمم أن يصيبهم ما كان يصيب القرون قبلهم من أنواع العذاب المستأصلة كالطوفان وغيره.

قال ابن القيم : قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وأصح القولين في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان :

أحدهما : أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر .

الوجه الثاني : أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض .

وقال ابنُ جُزي: المعنى ... أنَّ اللهَ رَحِمَ العالَمينَ بإرسالِ سَيدِنا محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه جاءهم بالسَّعادةِ الكبرى، والنَّجاةِ مِن الشَّقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيراتِ الكثيرةَ في الآخرةِ والأولى، وعَلَّمَهم بعد الجَهالةِ، وهداهم بعد الضَّلالةِ .

قال السعدي : فهو رحمته المهداة لعباده، فالمؤمنون به، قبلوا هذه الرحمة، وشكروها، وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

فائدة :

ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ).

فائدة :

ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة ، فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، وخص أبو بكر من بينهم بقوله (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر).

فائدة :

أن من خصائص النبي ﷺ أن دعوته عامة لجميع الناس.

كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً).

وقال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

وقال ﷺ (بعثت إلى الناس كافة).

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)) .

الأنبياء [١٠٨-١١٢] .

==============

(**قُلْ**) يا محمد للمشركين .

(**إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**) إنما أوحي إليّ ربي أن إلهكم المستحق للعبادة إله واحد فرد صمد .

(**فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**) استفهام معناه الأمر ، أي : فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره .

(**فَإِن تَوَلَّوْا**) أي : تركوا ما دعوتهم إليه وأعرضوا عن الإسلام .

(**فَقُلْ**) لهم .

قال أبو حيان : (آذنتكم) أعلمتكم وتتضمن معنى التحذير والنذارة .

(**آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء**) أي : فقُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: أعلَمْتُكم ببَراءتي منكم وبراءتِكم مِنّي، وأنَّه لا صُلحَ بيننا، ولا سِلْمَ، فاستَوَينا جميعُنا في العِلمِ بذلك .

قال الشنقيطي : أَيْ: أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرْبٌ لَكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ حَرْبٌ لِي، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنِّي. وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ أَشَارَتْ إِلَيْهِ آيَاتٌ أُخَرُ، كَقَوْلِهِ (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) أَيْ: لِيَكُنْ عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِنَبْذِ الْعُهُودِ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) . (أضواء)

وقيل : أن المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على السواء ، فلم أفرق في الإبلاغ والبيان بينكم ، لأني بعثت معلماً ، والغرض منه إزاحة العذر لئلا يقولوا (رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً) .

قال أبو حيان : (على سواء) لم أخص أحداً دون أحد ، وهذا الإيذان هو إعلام بما يحل بمن تولى من العقاب وغلبة الإسلام ، ولكني لا أدري متى يكون ذلك .

وقال السعدي: (فَقُلْ آذَنْتُكُمْ ...) أي: أعلمْتُكم بالعقوبةِ عَلَى سَوَاءٍ أي: علمي وعلمُكم بذلك مستوٍ، فلا تقولوا -إذا أُنزِل بكم العذابُ: ما جاءنا مِن بشيرٍ ولا نذيرٍ، بل الآنَ استوى علمي وعلمُكم، لما أنذَرْتُكم، وحذَّرْتُكم، وأعلمتُكم بمآلِ الكفرِ، ولم أكتُمْ عنكم شيئًا .

(**وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ**) أي : هو واقع بكم لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده .

قال البقاعي: فقال: وَإِنْ أي: وما أَدْرِي أَقَرِيبٌ جِدًّا بحيث يكونُ قُربُه على ما تتعارَفونَه أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ مِن عذابِ اللهِ في الدُّنيا بأيدي المسلِمينَ أو بغيرِه، أو في الآخرةِ، مع العلمِ بأنَّه كائِنٌ لا محالةَ، وأنَّه لا بدَّ أن يلحَقَ مَن أعرض عن اللهِ الذُّلُّ والصَّغارُ.

وقال ابنُ عاشور: قولُه: (وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ) يَشمَلُ كُلَّ ما يُوعَدونَه مِن عِقابٍ في الدُّنيا والآخرةِ، إن عاشُوا أو ماتوا .

(**إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ**) أَيْ : إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسِرُّونَ، يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي أَجْهَارِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ على ذلك الْقَلِيلِ وَالْجَلِيلِ.

كما قال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى).

وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ).

وَقَالَ تعالى (وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ).

وَقَال تعالى (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وَقَال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) .

قال الرازي : المقصود منه الأمر بالإخلاص وترك النفاق، لأنه تعالى إذا كان عالماً بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الإخلاص.

قال ابن عطية : وفي هذه الآية تهديد أي يعلم جميع الأشياء الواقعة منكم وهو بالمرصاد في الجزاء عليها .

(**وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**) أي : وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحان لكم ومتاع إلى أجل مسمى .

أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تتمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

والفتنة : اختلال الأحوال المفضي إلى ما فيه مضرة.

والمتاع : ما ينتفع به مدة قليلة ، كما تقدم في قوله تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل) .

والحين : الزمان.

(**قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ**) أي: افصل بيننا وبينهم بالحق. وذلك بنصر من آمن بما أنزلت، على من كفر به، كقوله تعالى : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) .

(**وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ**) واسع الرحمة ، الذي رحمته وسعت كل شيء .

(**الْمُسْتَعَانُ**) المعين لنا على الصبر .

(**عَلَى مَا تَصِفُونَ**) أي : من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه .

ومِن افتِرائِهم ووَصْفِهم الباطِلِ قولُهم في حَقِّه ﷺ (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) .

وقولُهم: (بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) .

وقولُهم على اللهِ جَلَّ ثناؤُه (اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) .

كما قال تعالى حكايةً عن يَعقوبَ ﷺ (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

وقد أجاب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

الفوائد :

١. أن النبي ﷺ مأمور بتبليغ دين الله .

٢. أعظم أمر هو توحيد الله وإفراده بالعبادة .

٣. أن الله واحد لا شريك له .

٤. دعوة الكفار إلى الإسلام .

٥. من أعرض –بعد دعوته– فقد جاءته النذر والرسل وليس له عذر .

٦. أن النبي ﷺ بلغ الدعوة لجميع المشركين دون استثناء .

٧. أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب .

٨. حكمة الله في تأخير العذاب أحياناً عن بعض الكفار .

٩. وجوب الحذر من النفاق والرياء لأن الله يعلم السر وأخفى .

١٠. الأمرُ بالإخلاصِ، وتَركُ النِّفاقِ؛ لأنَّه تعالى إذا كان عالِمًا بالضَّمائرِ، وجَبَ على العاقِلِ أن يُبالِغَ في الإخلاصِ .

١١. أن الله يستدرج الكفار ليعظم هلاكهم .

١٢. أن الحكم لله .

١٣. وجوب الاستعانة بالله .

١٤. اللجوء إلى الله والاستعانة به على تكذيب الكفار وطغيانهم .